أئمة الأدب

الصاحب ابن عباد

بقلم

خليل مردم بك

١٣٥١ هـ

١٩٣٢ م

مطبعة الترقي بدمشق

(ملحوظة)

سبق الكلام في الجزء الثالث من ائمة الادب على عصر ابن العميد والنهضة الفارسية والدولة البويهية وفيه ما يجزئ عن الكلام على عصر الصاحب ابن عباد والحياة السياسية والاجتماعية اذ ذاك لان ابن عباد عاصر ابن العميد وشركه في الجنس وخلفه في العمل ٠

الصاحب ابن عباد

(٣٢٦ - ٣٨٥)

نسبه

ينتسب الصاحب ابن عباد الى اسرة فارسية شريفة معروفة بالوجاهة والعلم والادب فهو كافي الكفاة ابو القاسم اسمعيل ابن ابي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن احمد بن ادريس الطالقاني نسبة الى الطالقان من اعمال قزوين والصاحب لقبه قال ابو سعيد الرستمي فيه:

ورث الوزارة كابراً عن كابر   موصولة الاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا   رته واسمعيل عن عباد

وقال ابو بكر الخوارزمي: «الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ودب ودرج من وكرها ورضع افاويق درها وورثها عن ابيه»

اما والده ابو الحسن عباد فقد كان يلقب بالامين وكان دينا خيراً مقدماً في صناعة الكتابة وكتب لركن الدولة وكان ينصر مذهب الاشناني تديناً وطلباً للزلفى عند ربه كما قال ابو حيان التوحيدي ·

وقد ورد ذكر عباد في كتاب الانساب للسمعاني وفي معجم الادباء لياقوت فذكرا عنه انه « كان من اهل العلم والفضل سمع ابا خليفة الفضل بن الحباب وابا بكر محمد بن يحيى المروزي وجعفر بن محمد بن الحسن القرماني ومحمد بن حيان المازني وجماعة من البغداديين والاصفهانيين والرازيين وروى عنه ابو اسحق بن حمزة الحافظ وابو الشيخ وابن مردويه الاصفهاني وابنه الوزير ابو القاسم ابن عباد والف كتاباً في احكام القرآن جود فيه ونصر فيه مذهب الاعتزال استحسنه كل من رآه · وكانت بينه وبين الحسن بن عبد الرحمن بن حماد القاضي مكاتبات ومراسلات قال ياقوت انها مذكورة مدونة » ·

وتولى عباد وزارة ركن الدولة قبل ابن العميد ؛ يدل على ذلك رسالة كتبها ابن العميد للصاحب ابن عباد ورد فيها :

« مولاي وان كان سيداً بهرتنا نفاسته وابن صاحب تقدمت علينا رياسته[١] ... »

وتوفي عباد سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة ·

مولده وموطنه

ولد الصاحب ابن عباد بالطالقان لاربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ست وعشرين وثلاثمائة والطالقان ولاية بين قزوين وبهر وهي عدة قرى يقع عليها هـذا الاسم · وبخراسان ايضاً بلدة تسمى الطالقان وليست بلدة الصاحب ·

نشأته

نشأ الصاحب في بيت علم وفضل ووجاهة واقبل على طلب العلم والادب منذ صغره وكان اذا اراد المضي الى

(١) انظر هذه الرسالة في ائمة الادب ج ٣ ص ٩١

المسجد ليقرأ تعطيه والدته في كل يوم ديناراً ودرهماً وتقول له تصدق بهما على اول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في صغره وشبابه الى ان كبر ٠

سمع من ابيه وجماعة وتلمذ لاحمد بن فارس فاخذ عنه الادب في الري «وابن فارس نحوي على طريقة الكوفيين حمل الى الري ليقرأ عليه ابو طالب بن فخر الدولة» كما انه اخذ عن ابن العميد في الري الادب والشعر والترسل وروى عن البغداديين والرازيين ٠

والف في عنفوان شبابه كتاب الوقف والابتداء وكان ابو بكر ابن الانباري له كتاب في الوقف والابتداء فارسل اليه ابو بكر يقول : انما صنفت في الوقف والابتداء بعد ان نظرت في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال الصاحب للرسول قل للشيخ نظرت في النيف وسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك ايضاً ٠

عند ابن العميد

كان الصاحب في بدء امره من صغار الكتاب يخدم استاذه ابا الفضل ابن العميد على خاصة ولاجل صحبته لابن العميد لقب بالصاحب فكان يقال صاحب ابن العميد ثم اطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً وهو اول من لقب به من الوزراء ·

كان ابن العميد يعطف على الصاحب ويتوسم فيه النجابة كما كان الصاحب يعجب بابن العميد ويجله · يحكى انه لما رجع الصاحب من بغداد دخل على ابن العميد فقال له كيف وجدت بغداد فقال : بغداد في البلاد مثل الاستاذ في العباد وانشده :

افاضل الناس وان برزوا　　لم يبلغوا غاية استاذها
اما ترى امصارها جمة　　ولا ترى مصرا كبغداذها

وكان ابن العميد قد قدم مرة الى اصبهان والصاحب بها فكتب اليه يقول :

قالوا ربيعك قد قدم　　فلك البشارة بالنعم

قلت الربيع اخو الشتا ٭ ام الربيع اخو الكرم
قالوا الذي بنواله ٭ يغني المقل عن العدم
قلت الرئيس ابن العميـ ٭ ـد اذاً فقالوا لي نعم

وقال في قدومه الى اصبهان ايضاً :

قدم الرئيس مقدماً في سبقه ٭ وكأنما الدنيا جرت في طرقه
فجبالها من حلمه وبحارها ٭ من جوده ورياضها من خلقه
وكأنما الافلاك طوع يمينه ٭ كالعبد منقاداً لمالك رقه
قد قاسمته نجومها فنحوسها ٭ لعدوه وسعودها في افقه
ما زلت مشتاقاً لنور جبينه ٭ شوق الرياض الى السحاب وودقه
حتى بدا من فوق اجرد سابح ٭ ان قال فت الريح فاه بصدقه
يحكي السحاب طلوعه فصهيله ٭ من رعده ومسيره من برقه
فنظمت مدحا لا وفاء بمثله ٭ وسجدت شكراً لا نهوض بحقه

وقال في توديعه :

اودع حضرتك العاليه ٭ ونفسي لا ادمعي هاميه
ومن ذا يودع هذا الجنا ٭ ب فتهنأه بعده العافيه
جناب رعيت به جنة ٭ قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا ٭ وعلمت ما الهمم العاليه

كأني بغداد في شوقها | اليك وادمعها الجاريه
وانت المرجى لاظفارها | بآمالها وبآماليه
ولو كنت تأذن لي في المسيـ | ـر اذاً سرت في جملة الحاشيه
سبقت جوادك مد الطريـ | ـق وسرت وفي يدي الغاشيه

وله فيه مدائح كثيرة منها قوله :

من لقلب يهيم في كل واد | وقتيل للحب من غير واد
انما اذكر الغواني والمقـ | ـصد سعدى مكثراً للسواد
واذا ما صدقت فهي مرامي | ومنائي وروضتي ومرادي
وندى ابن العميد اني عميد | من هواها اليه الامجاد
لو درى الدهر انه من بنيه | لازدرى قدر سائر الاولاد
اورأى الناس كيف يهتز للجو | د لما عددوه في الاطواد
ايها الآملون حطوا سريعاً | برفيع العماد واري الزناد
فهو ان جاد ضن حاتم طي | وهو ان قال قل قس اياد
واذا ما ارتأى فابن زياد | من علاه وابن آل زياد
قبل العيد يستعير حلاه | من علاه العزيزة الانداد
سيضحي فيه بمن لا يوالي | ه ويبقى بقية الاعياد
مدحي ان لم يكن طال ابيا | تاً فقد طال في مجال الجياد

ان خير المداح من مدحته شعراء البلاد في كل ناد

وقوله :

اما ترى اليوم كيف جادلنا بمستهل الشؤبوب منسجمه

يحكي ابا الفضل في تفضله هيهات ان يعتزي الى شيمه

كم حاسد لي وكنت احسده يقول من غيظه ومن المه

قال ابن عباد المنى كملت اذ عده ابن العميد من خدمه

وقوله من قصيدة ذكر فيها نقرسا نال يمناه :

ابو الفضل من اجرى الى الفضل يافعاً

فظل به يدعى وصار به يكنى

سلامته شمس المعالي وسقمه كسوف المعالي لا كسفن ولا بنا

ولم يأته ورد السقام لغير ما عرفنا نخذ معنى تألمه منا

وما راده الا ليشغل عن ندى والا فلم قد خص بالألم اليمنى

وما يحجز البحر الخضم عن الندى ولا السيد الاستاذ عن جوده يثنى

ومن اخباره مع ابن العميد ما حدث به قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضر الفقهاء والمتكلمون للمناظرة وانا اذ ذاك في ريعان شبابي فلما تقوض ذلك المجلس وانصرف القوم وقد حل الافطار

انكرت ذلك بيني وبين نفسي وعجبت من اغفاله الامر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته وعاهدت الله الا اخل بما اخل به اذا قمت يوماً مقامه ·

وبقي الصاحب في خدمة ابن العميد الى ان صار كاتباً لمؤيد الدولة كما سيأتي في الفصل الذي يلي هذا الفصل وظل على اخلاصه لابن العميد حتى توفي ابن العميد سنة ٣٦٠ فانقلبت تلك الصداقة الى عداوة بين ابي الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد وبين الصاحب كما سيمر بك حتى صار الصاحب ينحرف عمن يمت بالصحبة لآل العميد قال الثعالبي : كان الصاحب منحرفاً عن ابي الحسين ابن فارس لانتسابه الى خدمة ابن العميد وتعصبه له فانفذ اليه من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب رد الحجر من حيث جاءك ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وامر له بصلة · مع ان الصاحب تلميذ ابن فارس وفيه يقول : « شيخنا ابو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وامن فيه من التصحيف » ·

وقد ورد في احدى رسائل الصاحب ما يدل على موجدته

على آل العميد قال [١] (.. وفلان يعرفك ما رسمت اخراجه من معاملتك فتعلم اني احتطت لك احتياط الصديق ووضعت النظر والتسويغ وضع ذوي الاهتمام الصريح وحذفت ما كانت العميدية والقمية [٢] الزمته من صروف وطالبت به من قروف)

وقال ابو حيان التوحيدي : ما ذنبي اذا قال لي «الصاحب» هل وصلت الى ابن العميد ابي الفتح ؟ فاقول نعم رأيته وحضرت مجلسه وشاهدت ما جرى له و كان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا وفيما تقدم منه كذا و كذا ووصل ابا سعيد السيرافي بكذا و كذا ووهب لابي سليمان المنطقي كذا و كذا فينزوي وجهه وينكر حديثه وينجذب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له ثم يقول اعلم انك انما انتجعته من العراق فاقرأ عليّ رسالتك التي توسلت اليه بها واسهبت مقرظاً له فيها فأتمانع فيأمر ويشدد فاقرأها

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٠٢ (مخطوط)

(٢) لعله يريد بالقمية ابا عبد الله القمي وزير ركن الدولة قبل ابن العميد .

فيتغير ويذهل . ثم يقال لي من بعد جنيت على نفسك حتى
ذكرت عدوه عنده بخير واثنيت عليه وجعلته سيد الناس

عند مؤيد الدولة

ظل الصاحب كاتباً يخدم ابن العميد في الري الى ان استكتبه ابن العميد لمؤيد الدولة ابي منصور بويه ابن ركن الدولة في اصبهان ومؤيد الدولة حينئذ امير في عنفوان الشباب وابوه ركن الدولة لا يزال حياً ولابن العميد رسالة ينبئ بها الصاحب باختياره كاتباً لمؤيد الدولة ومهذبا جاء فيها « ... ولكن ولي النعمة يريد لتهذيب ولده ومن هو ولي عهده من بعده ... فلا يبخلن مولاي على ولي نعمته بفضل معرفته .. »

لا نعلم في اي سنة اختير الصاحب لكتابة مؤيد الدولة ولكنا نعلم ان ذلك كان قبل سنة ٣٤٧ اي حينما كان الصاحب ابن عشرين سنة فقد ورد في كتاب تجارب الامم لمسكويه في

حوادث سنة ٣٤٧ ما نصه : « وفيها ورد الامير ابو منصور بويه ابن ركن الدولة الى بغداد يخطب ابنة معز الدولة ومعه ابو علي ابن ابي الفضل القاشاني وزيرا ومعه ابو القاسم اسمعيل ابن عباد بكتب على سبيل الترسل فلما كانت ليلة السبت لليلتين خلتا من جمادى الاولى زفت بنت معز الدولة الى ابي منصور بويه ثم حملها الى اصبهان »

حمد مؤيد الدولة صحبة الصاحب وانس به لأنه احسن في خدمته واخلص اليه وآنس منه كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب كافي الكفاة كما يقول الصابي في كتاب التاجي فاستمر عليه لقب الصاحب واشتهر به وكان اول من سمي به ثم سمي به كل من ولي الوزارة من بعده .

تنقسم خدمة الصاحب لمؤيد الدولة الى قسمين قسم كان فيه كاتباً لا وزيراً وذلك من سنة ٣٤٧ « على وجه التقريب » الى سنة ٣٦٦ وهي السنة التي قتل فيها ابو الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد وتولى مكانه الصاحب . وقسم كان فيه الصاحب وزيراً لمؤيد الدولة وذلك من سنة ٣٦٦ الى وفاة مؤيد الدولة سنة ٣٧٣ .

وقد كانت اقامته مع مؤيد الدولة في القسم الاول من خدمته باصبهان ومن اخباره فيه انه سافر مع مؤيد الدولة الى بغداد سنة ٣٤٧ كما ذكر من قبل فعجبته بغداد كثيراً حتى قال لما سأله عنها ابن العميد « بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد » وفي بغداد اجتمع الصاحب بابي سعيد السيرافي وغيره من العلماء قال الصاحب: « انتهيت الى ابي سعيد السيرافي وهو شيخ البلد وفرد الادب وحسن التصرف ووافر الحظ من علوم الاوائل فسلمت عليه وقعدت اليه و بعضهم يقرأ الجمهرة فقرأ أَنْمَقْتُ فقلت انما هو أَمْقَتُ فدافعني الشيخ ساعة ثم رجع الى الاصل فوجد حكايتي صحيحة واستمر القاريء حتى انشد وقد استشهد :

رسم دار وقفت في طلله　　كدت اقضّي الغداة من جلله

فقلت ايها الشيخ هذا لا يجوز والمصراعان على هـذا النشيد يخرجان من بحرين لان :

رسم دار وقفت في طلله　　فاعلاتن مفـاعلن فعلن

(و) كدت اقضّي الغداة من جلله　　مفتعلن فـاعلاتن مفتعلن

فذاك من الخفيف وهذا من المنسرح. فقال لم لا تقول

الجميع من المنسرح والمصراع الاول مخزوم ٠فقلت لايدخل الخزم هذا البحر لان اوله مستفعلن مفاعلن هذه مزاحفة عنه واذا حذفنا متحركاً بقينا ساكناً وليس في كلام العرب ابتداء به وانما هو:

(كدت أقضي الغداة من جلله)

بتخفيف الضاد فامر بتغييره ورفعني الى جنبه وابتدأ فقرئ عليه من كتاب المقتضب باب ما يجري وما لا يجري الى أن ذكر (وسَحَرَ) وانه لا ينصرف اذا كان لسحر بعينه لانه معدول عن الاول فقلت ما علامة العدل فيه فقال انا قلنا السحر ثم قلنا سحر فعلمنا ان الثاني معدول عن الاول ٠ قلت لو كان كذلك لوجب ان تطرد العلة في عتمة لانك تقول العتمة ثم تقول عتمة فضجر واحتد وصاح وازبد وادعيت انه ناقص والتمس التحاكم فكتبت رسالة اخذت فيها خطوط اهل النظر وقد أنفذت درج كتابي نسختها وفيها خط أبي عبد الله بن رذام عين مشايخهم ٠ ورأيت الشيخ بعد ذلك عزيزاً فاضلاً متوسعاً عالماً فعلقت عليه واخذت عنه وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه وقرأت صدراً منه

وهناك ابو بكر ابن مقسم وما في اصحاب ثعلب أكثر دراية ولا اصح رواية منه وقد سمعت مجالسه وفيها غرائب ونكت ومحاسن وظرف من بين كلمة نادرة ومسألة غامضة وتفسير بيت مشكل وحل عقد معضل وله قيام بنحو الكوفيين وقراءتهم ورواياتهم ولغاتهم · والقاضي ابو بكر بن كامل بقية الدنيا في علوم شتى يعرف الفقه والشروط والحديث وما ليس من حديثنا ويتوسع في النحو توسعاً مستحسنا وله في حفظ الشعر بضاعة واسعة وفي جودة التصنيف قوة تامة ومن كبار رواة المبرد وثعلب والبحتري وابي العيناء وغيره وقد سمعت صدراً صالحاً مما عنده وكنت احب ان اسمع كلام اهل النظر بالعراق لما تتابع في حذقهم من الاوصاف ·

قال ابو اسحق الصابي : حضر الصاحب ابو القاسم ابن عباد دار الوزير المهلبي عند وروده الى بغداد مع موٴيد الدولة فحجب عنه لشغل كان فيه وجلس طويلا فلما تأخر الاذن كتب اليّ رقعة لطيفة فيها :

واتركُ محجوباً على الباب كالـ·· ويدخل غيري كالـ·· ويخرج

فأقرأتها الوزير المهلبي فأمر بإدخاله · قال وكان الصاحب

غند دخوله الى بغداد قصد القاضي ابا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتثاقل في القيام له وتحفز تحفزاً أراه به ضعف حركته وقصور نهضته فاخذ الصاحب بضبعه وأقامه وقال نعين القاضي على قضاء حقوق اخوانه فخجل ابو السائب واعتذر اليه ٠

وقال الصاحب : ما زال احداث بغداد يذاكرونني بابن شمعون المتصوف وكلامه على الناس في مكان الشبلي فجمعت يوماً في المدينة وعلي طيلسان ومصمتة ووقفت عليه وقد لبس فوطة قصب وقعد على كرسي ساج بوجه حسن ولفظ عذب فرأيته يقطع مسائله بهوس يطيله ويسهب فيه فقلت لا بد من أن أسأله عما أقطع به وابتدرت فقلت يا شيخ ما تقول في قدسيكونيات[١] العلم اذا وقعت قبل التوهم فورد عليه ما لم يسمع به فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال لم أؤخر اجابتك عجزاً عن مسألتك بل لاعطشك الى الجواب واخذ في ضرب من الهذيان فلما سكت قلت هذا بعد التوهم وانما سألتك قبله الى ان ضجر فانصرفت عنه ٠

ولما عاد الصاحب من بغداد اخذ معه ابا الحسن البديهي الى

---

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٣١٩

اصبهان . واستهوته محاسن بغداد حتى حسن لفخر الدولة الاستيلاء عليها كما سيأتي .

وفي مدة كتابته لمؤيد الدولة زار المتنبي ابن العميد وطمع الصاحب في زيارة المتنبي اياه باصبهان واجرائه مجرى مقصود به من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب والحال حوبلة والبحر دجيلة ولم يكن استوزر بعد فكتب يلاطفه في استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزنا ولم يجبه عن كتابه وقيل ان المتنبي قال لاصحابه ان غلياماً معطاءاً يريد ان ازوره وامدحه ولا سبيل الى ذلك فصيره الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته وينعي عليه سيئاته وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم واكثرهم استعمالا لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته [٢]

وربما كان بناء القصر الذي شيده الصاحب باصبهان في القسم الاول من خدمته لمؤيد الدولة لان اقامته كانت باصبهان في ذلك القسم قال الثعالبي في يتيمة الدهر : اقرأني ابو بكر الخوارزمي كتاباً لابي محمد الخازن ورد عليه في ذكر الدار التي

---

(٢) الصبح المنبي ص ٨٢

بناها الصاحب باصبهان وانتقل اليها واقترح على اصحابه وصفها وهذه نسخته بعد الصدر (نعم الله عند مولانا الصاحب ادام الله تأييده مترادفة ، واياديه متضاعفة ، وارى اولياء النعم كبت الله اعداءهم تتظاهر كل يوم حسناً في اعظامه ، و بصائرهم تترامى قوة في اكرامه ، والوفود على بابه المعمور كرجل الجراد وانتقل الى البناء المعمور بالفأل المسعود فرأينا يوماً مشهوداً ، وعيداً يجنب عيداً ، واجتمع المادحون وقال القائلون ولو حضرتني القصائد كلها لانفذتها الا اني علقت من كل واحدة ما علق بحفظي والشيخ مولاي يعرف ملك النسيان لرقي) ثم ذكر قصائد للشعراء الآتية اسماؤهم في وصف تلك الدار وهم : ابو العباس الضبي وابو الحسن صاحب البريد وهو ابن عمة الصاحب وابو الطيب الكاتب وابو سعيد الرستمي وابو الحسن الجرجاني وابو القاسم الزعفراني وابو القاسم ابن ابي العلاء وابو محمد ابن المنجم وابو عيسى ابن المنجم وابو القاسم عبيد الله بن محمد ابن المعلاً ابوه وابو العلاء الاسدي وابو الحسن الغويري وابن عطية وابو بكر الخوارزمي وغيرهم

***

اما القسم الثاني من خدمة الصاحب لمؤيد الدولة الذي

صار فيه الصاحب وزيراً فيبتدئ من سنة ٣٦٦ الى سنة ٣٧٣ وذلك ان ركن الدولة عهد قبل وفاته سنة ٣٦٦ الى ولده عضد الدولة بالملك من بعده وجعل لولده فخر الدولة علي همذان واعمال الجبل ولولده مؤيد الدولة اصبهان واعمالها .

وفي المحرم سنة ٣٦٦ توفي ركن الدولة وكان وزيره ابو الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد فورد ابنه مؤيد الدولة من اصبهان الى الري في صفر وخلع على ابي الفتح واستوزره في شهر ربيع الاول وكان مع مؤيد الدولة الصاحب فكتب الى ابي الفتح كتاب تهنئة بالوزارة اوله (انا اهنئ اطال الله بقاء مولاي الوزارة بالقائها الى فضله مقادتها[1] ...) فكره ابو الفتح موضعه وبعث الجند على الشغب حتى هموا بقتله وتلطف الصاحب في خلال ذلك لابي الفتح وقال له : انا اتظلم منك اليك واتحمل بك عليك وهذا الاستيحاش سهل الزوال اذا تألفت الشارد من حلمك وعطفت على الشائع من ذكرك ولني ديوان الانشاء واستخدمني فيه ورتبني بين يديك واحضرني بين امرك ونهيك وسمني برضاك فاني صنيعة والدك واتخذني بهذا صنيعة لك ولبس يجمل

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٢٦ (مخطوط)

ان تكر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه ومتى اجبتني الى هذا وأمنتني فاني اكون خادمك بحضرتك وكاتباً بطلب الزلفة عندك في صغير امرك و كبيره وفي هذا اطفاء النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك اعدائي عليّ .

فقال ابو الفتح في الجواب : والله لا تجاورني في بلد السرير وبحضرة التدبير وخلوة الامير ولا يكون لك اذن عليّ ولا عين عندي وليس لك مني رضى الا بالعود الى مكانك من اصبهان والسلو عما تحدث به نفسك

فأمر مؤيد الدولة الصاحب بالعودة الى اصبهان فخرج من الري لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٦ على صورة قبيحة متنكراً بالليل وذلك انه خاف الفتك والغيلة و بلغ اصبهان والتي عصاه بها ونفسه تغلي وصدره يفور والخوف شامل والوسواس غالب وهم ابو الفتح بانفاذ من يطالبه و يؤذيه و يهينه ويعسفه .

قال الوزير ابو سعد سمعت الصاحب يذكر امره فقال في اثناء كلامه : ان مؤيد الدولة قال لي عند خروجي الى اصبهان ان ورد عليك كتاب بخطي او جاءك اجل حجابي وثقاتي للاستدعاء فلا تبرح من اصبهان ولا تفارقها الى ان يجيئك فلان

الركابي فانه ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل (ابو الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد) وامكنني الله من القبض عليه بادرت به اليك وهو العلامة بيني و بينك . قال فاستعظمت لحداثة سني وغرة الصبي وقلة التجربة ما حكاه الصاحب من قول موٴيد الدولة « ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل » وتعجبت منه واردت الغض من ابي الفتح فقلت وكان لأبي الفتح من القدر ان يصعب حبسه او يحتاج صاحبه الى الاحتيال معه ؟ فانتهرني الصاحب وقال يافلان انت صبي تحسب ان القبض على الوزراء سهل ففطنت انه يريد الرفع من شأن الوزارة وتفخيم امرها فعدلت عن كلامي الاول الى غيره .

ولم يمض أكثر من شهر على عودة الصاحب من الري الى اصبهان حتى امر موٴيد الدولة بالقبض على ابي الفتح ثم أمر بقتله واستوزر الصاحب وفوض اليه امور مملكته وحكمه في امواله .

. . . . .

مرَّ بك ان ركن الدولة قبل وفاته عهد بالملك من بعده الى ولده عضد الدولة وجعل لولده فخر الدولة همذان واعمال الجبل ولولده موٴيد الدولة اصبهان واعمالها . وكان فخر الدولة مداجياً

لاخويه وقد كاتبه ابن عمه بختيار بن معز الدولة ودعاه الى الاتفاق معه على عضد الدولة فأجابه الى ذلك فعلم عضد الدولة به فغار به واستولى على بلاده سنة ٣٦٩ واضافها الى اخيه مؤيد الدولة صاحب اصبهان واعمالها فهرب فخر الدولة الى جرجان والتجأ الى شمس المعالي قابوس بن وشمكير فأمنه وآواه ·

وفي سنة ٣٧٠ كان عضد الدولة بهمذان فأرسل اليه مؤيد الدولة الصاحب ابن عباد رسولاً ببذل الطاعة والموافقة فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد وبالغ في اكرامه ورسم لاكابر كتابه وأصحابه تعظيمه ففعلوا ذلك حتى أنهم كانوا يغشونه مدة مقامه مواصلة ولم يركب هو الى احد منهم

وقد كتب الصاحب الى مؤيد الدولة رسالة يصف فيها ما لقيه من عطف عضد الدولة جاء فيها (فاما انعام مولانا على عبده وصنيع يده واستقباله بنفسه والدنيا تسير بسيره وخدود النجم مع سنابك خيله وتلقيه اياه بوزراء بابه وامراء اجناده وعظماء قواده متصرفين مع الاعظام ومتحفين في اللقاء والسلام ثم رتبتي به في دخولي الى الدار المعمورة بالعز وحضوري المجلس المحفوف بالملك والتبليغ بي الى رتبة

لم يقسمها حرس الله ملكه لاحد ممن غشي بابه المأمول من اطراف الأرض وأعيان الشرق والغرب واستجلاسي بحضرته التي يقف بها القمران على النواصي والهام الى ضروب من الانعام استعظم والله وصفها وان كانت الاخبار قد سارت على متون الرياح[١] بها)

وكان غرض عضد الدولة بذلك استمالة مؤيد الدولة وتأنيس الصاحب[٢]. ووردت كتب مؤيد الدولة يستطيل مقام الصاحب ويذكر اضطراب اموره بعده . فخلع عضد الدولة على الصاحب الخلع الجليلة وحمله على فرس بمركب ذهب ونصب له دستاً كاملاً في خركاه يتصل بمضاربه واجلسه فيه واقطعه ضياعاً جليلة من نواحي فارس وحمل الى مؤيد الدولة في صحبته الطافاً كثيرة وضم اليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عدداً ليكونوا برسم خدمة مؤيد الدولة .

قال ابو حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين[٣] : (لما

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص١٦٢ (مخطوط)

(٢) ذيل تجارب الامم ص ١٠

(٣) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٨٢

رجع الصاحب من همذان بعد ان فارق حضرة عضد الدولة استقبله الناس من الري وما يليها واجتمعوا بساوة وقد كان أعدّ لكل واحد منهم كلاما يلقاه به عند روءيته فاول من دنا منه القاضي ابو الحسن الهمذاني من قرية يقال لها اسداباذ فقال له أيها القاضي ! ما فارقتك شوقا اليك ، ولا فارقتني وجداً عليك ، ولقد مرت لي بعدك مجالس تفضيك ، وتحطيك وترضيك ، ولو شهدتني بين اهلها وقد علوتهم بتبياني ولساني ، وجدلي وبرهاني ، لا نشدت قول حسان بن ثابت في ابن عباس وهو :

اذا ما ابن عباس بدا لك وجهه ... رأيت له في كل مجمعة فضلا
اذا قال لم يترك مقالا لقائل ... بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع ... لذي اربة في القول جدا ولا هزلا
سموت الى العليا بغير مشقة ... فنلت ذراها لا دنيا ولا وغلا

ولذكرت ايضا ايها القاضي قول الآخر وانشدته فانه قال فيمن وقف بوقفي ، وقرف مقرفي ، وتصرف تصرفي ، وانصرف منصرفي ، واغترف مغترفي :

اذا قال لم يترك مقالا ولم يقف ... لعي ولم يثن اللسان على هجر

يصرف بالقول اللسان اذا انتحى   وينظر في اعطافه نظر الصقر

ولقد اودعت صدر عضد الدولة ما يطيل النفاته اليّ ، ويكثر حسرته عليّ ، ولقد رأى مني ما لم ير قبله مثله ، ولا يرى بعده شكله ، والحمد لله (الذي) اوفدني عليه على ما يسر الولي ، واصدرني عنه على ما يسوء العدو ، ايها القاضي ! كيف الحال والنفس ، وكيف المجلس والدرس ، وكيف العرض والحرس ، وكيف الدس والعس ، وكيف الفرس والمرس · وكاد لا يخرج من هذا الهذيان لتهيجه واحتدامه وشدة خباله وغلوائه والهمذاني مثل الفأرة بين يدي السنور وقد تضاءل وقوء لا يصعد له نفس الا بنزع تذللا وتقللا هذا على كبره في نفسه ·

ثم نظر الى الزعفراني رئيس اصحاب الرأي فقال : ايها الشيخ ! سرني بقاؤك ، وساءني عناؤك ، ولقد بلغني عداؤك ، وما خيله اليك خيلاؤك ، وارجو الا اعيش حتى يرد عليك غلواؤك ، ما كان عندي انك تقدم على ما اقدمت عليه ، وتنتهي في عدوانك لاهل العدل والتوحيد الى ما انتهيت اليه ، ولي معك ان شاء الله نهار له ليل ، وليل يتبعه ليل وثبور يتصل به ويل ، وقطر يدفع ومعه سيل ، « وسيعلم الكفار لمن عقبى

الدار » فقال له الزعفراني حسبنا الله ونعم الوكيل

ثم ابصر ابا طاهر الحنفي فقال : ايها الشيخ ! ما ادري اشكوك ام اشكو اليك أم شكواي منك ، فانك لم تكاتبني بحرف ، كأنا لم نتلاحظ بطرف ، ولم نتحافظ على الف ، ولم نتلاق على ظرف . واما شكواي اليك فاني ذممت الناس بعدك ، وذكرت لهم عهدك ، وعرضت بينهم ودك ، وقدحت عليهم زندك ، ونشرت عليهم غرائب ما عندك ، فاشتاقوا اليك بتشويقي ، واستصفوك بترويقي ، واثنوا عليك بتنميقي وتزويقي ، وهكذا عمل الاحباب ، اذا نأت بهم الركاب ، والتوت دونهم الاعناق ، واضطرمت في صدورهم نار الاشتياق ، فالحمد لله الذي اعاد الشعب ملتئماً ، والشمل منتظماً ، والقلوب وادعة ، والاهواء جامعة ، حمداً يتصل بالمزيد ، على عادة السادة مع العبيد ، عند كل قريب وبعيد ، سقى الله ربعاً انت اشدته بنزاهتك ، وطبعاً انت أطبته ببراعتك ، ومغرساً انت ينعته بنباهتك .

وقال للعيسا باذي : ايها القاضي ! ايسرك ان اشتاقك وتسلو عني ، وان اسأل عنك وتنسل مني ، وان اكاتبك فتتغافل ، واطالبك بالجواب فتتكاسل ، وهذا مالا احتمله من صاحب

خراسان ، ولا يطمع في مثله مني ملك بني ساسان ، متى كنت منديلاً ليد ، ومتى نزلت عن هذا الحد لاحد ، ان انكفأت عليّ بالعذر انكفاء ، والا اندرأت عليك بالعذل اندراء ، ثم لا يكون لك فرار بحال ، ولا يبقى لك بمكاني استكبار الا على وبال وخبال .

ثم طلع ابو طالب العلوي فقال (له) : ايها الشريف ! جعلت حسناتك عندي سيئات ، ثم اضفت اليها هنات ، ولم تفكر في ماض ولا آت ، اضعت العهد ، واخلفت الوعد ، وحققت النحس وابطلت السعد ، وحلت سراباً للجيران ، بعد ما كنت شراباً للحران ، وظننت انك قد شبعت مني ، واعتضت عني ، هيهات وانى بمثلي ، اومن يعثر في ذيلي ، او له نهار او ليل كليلي ،

وهل عائض مني وان جل عائض

انا واحد هذا العالم ، وانت بما تسمع عالم ، لا اله الا الله سبحان الله ايها الشريف ابن الحق الذي و كدناه ايام كادت الشمس تزول ، والزمان علينا يصول ، وانا اقول وانت تقول والحال بيننا يحول ، سقى الله ليلة تشييعك وتوديعك ، وانت

متنكر تنكراً يسوء الموالي ، وانا متفكر تفكراً يسوء العدو ونحن متوجهون الى ورامين ، خوفاً من ذلك الجاهل المهين .

(يعني بالجاهل المهين ابا الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد) .

ثم نظر الى ابي محمد كاتب الشروط فقال: ايها الشيخ! الحمد لله الذي كفانا شرك ، ووقانا عرك وضرك ، وانا نافيحك وحرك ، دببت الضر الينا ، ومشيت الجمر علينا ، ونحن نحبس لك الحبس ، ونصفك باللبابة والكيس ونقول ليس مثله ليس ، وانت في خلال ذلك تقابلنا بالويح والويس ، لولا انك قرحان ، لسقط بك العشاء على سرحان .

وقال لابن ابي خراسان الفقيه الشافعي ايها الشيخ ! الغيت ذكرنا عن لسانك ، واستمررت على الخلوة بانسانك ، جارياً على نسيانك ، مشتهرا بفتيانك وافتنانك ، غير عاطف على اخدانك واخوانك ، لولا انني ارعى قديماً قد اضعته ، واعطيك من رعايتي ما قد منعته ، لكان لي ولك حديث ، اما طيب واما خبيث ، خلفتك محتسباً ، فالفيتك مكتسباً ، وتركتك آمراً بالمعروف فلحقتك راكباً للمنكر ، قد نفيل الرأي وتخيب الظن وتكذب الآمل وقد قال الاول:

الارب من نغتشه لك ناصح　　　ومؤتمن بالغيب وهو ظنين

ثم نظر الى الشادباشي فقال يا ابا علي ! كيف انت، وكيف كنت ، فقال يا مولانا

لا كنتُ إن كنت ادري كيف كنت ولا
　　لا كنتُ ان كنتُ ادري كيف لم اكن

فقال اعرب يا ساقط يا هابط ، يا من تذهب الى الحائط بالغائط ، ليس هذا من تحت يدك ، ولا هو مما نشأ من عندك ، هذا لمحمد بن عبد الله بن طاهر واوله :

كنت تسأل عني كيف كنت وما
　　لاقيت بعدك من هم ومن حزن
لا كنتُ ان كنت ادري كيف كنت ولا
　　لا كنت ان كنت ادري كيف لم اكن

وكان ينشد وهو يلوي رقبته وتجحظ حدقته وينزي اطراف منكبيه ويتشايل ويتمايل كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال يا ابا علي لا تعول على . . . .
فانك ان عولت على ذلك شانك وخانك وفضح خانك ومانك ،
ثم نظر الى غلام قد بقل وجهه . . . .

فانثوى وتقلقل وقال : ا.ن مني يا بني ، كيف كنت ولم حملت على نفسك هذا العناء ، وجهك هذا الحسن لا يتبذل للشحوب ، ولا يعرض للفحات الشمس بين الطلوع الى الغروب ،انت تحب ان تكون بدلة ، بين حجلة وكلة . . . .

هذا آخر حديث الاستقبال) .

***

علمت مما تقدم ان فخر الدولة لما غلب على امره التجأ الى قابوس بن وشمكير في جرجان فطلبه عضد الدولة من قابوس فابى ان يسلمه فجهز اليه عضد الدولة اخاه مؤيد الدولة فسار الى جرجان في منتصف سنة احدى وسبعين وثلاثماية فانهزم قابوس وفخر الدولة واستولى مؤيد الدولة على طبرستان وجرجان واستقر بجرجان وجعلها داره .

وحصل الصاحب في هذه الوقعة على الفيل الذي كان في عسكر العدو فامر من بحضرته من الشعراء ان يصفوه على وزن قصيدة عمرو بن معد يكرب :

اعددت للحدثان سا بغة وعداء علندى

فوصفه عبد الصمد بن بابك وابو الحسن الجوهري وابو محمد

الخازن وغيرهم وتجد مختارات من قصائدهم في الجزء الثالث من يتيمة الدهر للثعالبي ص ٦٨ وهي فريدة في بابها في الشعر العربي ·

وللصاحب ثلاث رسائل كتبها مبشراً بهذا الفتح العظيم تجدها في المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد المخطوط ص ٣ و ٢١ و ٢٩ ·

وفي شوال سنة ٣٧٢ توفي عضد الدولة فسمت نفس أخيه مؤيد الدولة للاستيلاء على الممالك والقيام مقامه فيها ولكنه عوجل فعرضت له علة الخوانيق واشتدت به سنة ٣٧٣ وهو في جرجان فقال له الصاحب : لو عهد امير الامراء عهداً الى من يراه يسكن اليه الجند الى ان يتفضل الله تعالى بعافيته وقيامه الى تدبير مملكته لكان ذلك من الاستظهار الذي لا ضرر فيه · فقال له : انا في شغل عن هذا وما للممالك قدر مع انتهاء الانسان الى مثل ما انا فيه فافعلوا ما بدا لكم ثم اشفى · فقال له الصاحب : تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه ونبرأ من هذه الاموال التي لست على ثقة من طيبها وحصولها من حلها واعتقد متى اقامك الله وعافاك صرفها في وجوهها ورد كل

ظلامة نعرفها ونقدر على ردها ففعل ذلك وتلطف به وقضى نحبه في شعبان وهو ابن ثلاث واربعين سنة ·

عند فخر الدولة

لما توفي مؤيد الدولة بجرجان ولم يعهد بالملك الى احد من بعده تشاور اكابر دولته فيمن يقوم مقامه فاشار الصاحب باعادة فخر الدولة الى مملكته اذ هو كبير البيت ومالك تلك البلاد قبل مؤيد الدولة ولما فيه من آيات الامارة والملك فكتب اليه واستدعاه وهو بنيسابور على حالة مختلة واضاقة شديدة فسار فخر الدولة الى جرجان ودخلها في شهر رمضان سنة ٣٧٣ فتلقاه الصاحب فرحب به فخر الدولة وبالغ في اكرامه وتناهى في اعظامه ·

واراد الصاحب اختبار فخر الدولة هل في نفسه عليه شيء مما كان في ايام مؤيد الدولة الذي اوجب هرب فخر الدولة فقال له : « قد بلغك الله يا مولاي وبلغني فيك ما املته لنفسك

واملته لك ومن حقوق خدمتي عليك اجابتي الى ما اوثره من ملازمة داري واعتزال الجندية والتوفر على امر المعاد » فقال له فخر الدولة : « لا تقل ايها الصاحب هذا فانني ما اريد الملك الا لك ولا يجوز ان يستقيم أمري الا بك واذا كرهت ملابسة الامور كرهت ذاك بكراهيتك وانصرفت »[1] فقبل الارض شكراً وقال الأمر امرك وتلا ذلك انه خلع عليه خلع الوزارة واكرمه بما لم يكرم بمثله وزير وصدر عن رأيه في جليل الامور وصغيرها . وكان اذا قال فخر الدولة قولا وقال الصاحب قولا امتثل قول الصاحب وترك قول فخر الدولة . وقال الصاحب : ما استأذن لي على فخر الدولة وهو في مجلس الانس الا انتقل الى مجلس الحشمة فيأذن لي فيه وما اذكر انه تبذل بين يديّ ومازحني قط الا مرة واحدة فانه قال لي في شجون الحديث بلغني انك تقول المذهب مذهب الاعتزال و . . . فاظهرت الكراهة لانبساطه

---

(١) كذا في ذيل تجارب الامم وفي ابن الاثير . وقد ورد في يتيمة الدهر للثعالبي وفي معجم الادباء لياقوت ان فخر الدولة قال للصاحب لما استعفاه من الوزارة : « لك في هذه الدولة من ارث الوزارة كما لنا من ارث الامارة فسبيل كل واحد منا ان يحتفظ بحقه » .

وقلت بنا من الجد مالا نفرغ معه للهزل ونهضت كالمغاضب فما زال يعتذر اليَّ مراسلة حتى عاودت مجلسه ولم يعد بعدها لما يجري مجرى الهزل والمزح ٠

وبعد ان استقام الامر لفخر الدولة ترك جرجان وانصرف مع الصاحب الى الري عاصمة مملكته سنة ٣٧٣ و بذل الصاحب جهده في خدمة اميره وتوسيع مملكته قال ياقوت في معجم الادباء فتح الصاحب خمسين قلعة سلمها الى فخر الدولة لم يجتمع عشر منها لابيه ولا لاخيه ٠

وفي المحرم سنة ٣٧٨ اهدى الصاحب الي فخر الدولة ديناراً وزنه الف مثقال و كان على احد جانبيه مكتوب :

واحمر يحكي الشمس شكلا وصورة فاوصافه مشتقة من صفاته
فان قيل دينار فقد صدق اسمه وان قيل الف كان بعض سماته
بديع فلم يطبع على الدهر مثله ولا ضربت اضرابه لسراته
فقد ابرزته دولة فلكية [1] اقام بها الاقبال صدر قناته
وصار الى شاهانشاه انتسابه على انه مستصغر لعفاته
تفاءلت ان يبقى سنين كوزنه لتستمتع الدنيا بطول حياته

---

(١) قال ابن الاثير قوله دولة فلكية يعني ان لقب فخر الدولة كان فلك الامة ٠

تأنق فيه عبده وابن عبده وغرس اياديه وكافي كفاته

وكان على الجانب الآخر سورة الاخلاص ولقب الخليفة الطائع ولقب فخر الدولة واسم جرجان لانه ضرب بها ٠

وحدثته نفسه بالمسير الى العراق وضمه الى مملكة فخر الدولة فقد روى عنه انه قال: «مابقي من اوطاري واغراضي الا ان املك العراق واتصدر ببغداد واستكتب ابا اسحق الصابي ويكتب عني واغير عليه» ٠ ولا شك ان تلك الامنية تنوقلت عنه حتى صار شعراؤه يصرحون بها في مدائحهم له ليسروه قال ابو القاسم الزعفراني من قصيدة يمدح بها الصاحب:

لا ذكرت العراق ماعشت الا ان اراه يومه في الجنود

وهكذا فقد زين الصاحب لفخر الدولة سنه ٣٧٩ الاستيلاء على العراق ورد في ذيل تجارب الامم: كان الصاحب ابن عباد على قديم الايام وحديثها يحب بغداد والرياسة فيها ويراصد اوقات الفرصة لها فلما توفي شرف الدولة سمت نفسه لهذا المراد وظن ان الغرض قد امكن فوضع على فخر الدولة من يعظم في عينيه ممالك العراق ويسهل عليه فتحها واحجم الصاحب عن مفاتحته بذلك خوفاً من خطر العاقبة الى ان قال له فخر الدولة

ما الذي عندك ايها الصاحب فيما نحن فيه فقال الامر لشاهانشاه وما يذكر من جلالة تلك الممالك مشهور لاخفاء به وسعادته غالبة فاذا هم بامر خدمته فيه وبلغته اقصى مراميه فعزم حينئذ على قصد العراق وسار الى همذان واستقر العزم على أن يسير الصاحب وبدر بن حسنويه على طريق الجـادة ويسير فخر الدولة وبقية العسكر على طريق الاهواز فلما سار الصاحب قيل لفخر الدولة انه من الغلط مفارقة الصاحب لك لأنك لاتأمن أن يستميله اولاد عضد الدولة فيميل اليهم فاستعاده اليه ليسير الى الاهواز فسبق اليها وملكهـا ولحقه فخر الدولة بعد عشرين يوماً وأساء السيرة مع جندها وضيق عليهم ولم يبذل المال فتخاذل الجند وكان الصاحب قد امسك نفسه تأثراً بما قيل عنه من اتهامه . فلما سمع بهاء الدولة بوصولهم الى الاهواز سير اليهم العساكر والتقوا هم وعساكر فخر الدولة واتفق ان دجلة الاهواز زادت ذلك الوقت زيادة عظيمة وانفتحت البثوق منها فظنها عسكر فخر الدولة مكيدة وقال بعضهم لبعض انما حملنا الصاحب لهذه البلاد طلباً لهلاكنا فانهزموا فقلق فخر الدولة من ذلك وكان قد

استبد برأيه فعـاد حينئذ الى رأي الصاحب فاشار ببذل المال واستصلاح الجند وقال له ان الرأي في مثل هـذه الاوقات اخراج المال وترك مضايقة الجنـد فان اطلقت المال ضمنت لك حصول اضعافه بعد سنة فلم يفعل ذلك وتفرق عنه كثير من عسكر الاهواز واتسع الخرق عليه وضاقت الامور به فعـاد الى الري وعادت الاهواز الى بهاء الدولة .

وفي سنة ٣٨٤ خطب الصاحب ابنة ابي الفضل ابن الداعي لسبطه عباد بن علي بن الحسين قال ياقوت في معجم الادباء: ووقع الاملاك في داره يوم الخميس لاربع خلون من شهر ربيع الاول سنة ٣٨٤ وكان يوماً عظيماً احتفل فيه كافي الكفاة ونثر من الدنانير والدراهم شيئاً كثيراً ولذلك انفذ فخر الدولة على يدي احد حجابه الكبار الى هناك من النثار ما زاد على مائة طبق عيناً وورقاً وكانت ام العروس ديكونة بنت الحسن بن الفيروزان خالة فخر الدولة فاضاف الصاحب الناس ونصبت مائدة عظيمة في بيت طوله يزيد على خمسين ذراعاً وكانت بطول البيت ووقف ابو العباس

الفيروزان وعبد الملك بن ماكان للخدمة ووقف كافي الكفاة ايضاً ساعة ووقف جميع اكابر الكتاب والحجاب الى ان فرغ القوم من الأكل ثم اكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة واما قاضي القضاة والاشراف والعدول فانهم اطعموا على مائدة اخرى في بيت آخر .

وفي سنة ٣٨٤ توفيت والدة الصاحب قال الوزير ابو سعد منصور ابن الحسين الآبي : توفيت ام كافي الكفاة باصبهان وورد عليه الخبر فجلس للتعزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة ٣٨٤ وركب اليه سلطانه وولي نعمته فخر الدولة ابن ركن الدولة معزيا وجلس عنده طويلاً يعزيه ويسكن منه وبسط الكلام معه بالعربية وكان يفصح بها فسمعته يقول حين اراد القيام ايها الصاحب هذا جرح لا يندمل . فاما سائر الامراء والقواد مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل وفولاذ بن زماندار احد ملوك الديلم وابي العباس الفيروزان ابن خالة فخر الدولة وغيرهم من الاكابر والاماثل فانهم كانوا يحضرون حفاة حسراً وكان كل واحد منهم

---

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٣٠٤

اذا وقعت عينه على الصاحب قبل الارض ثم يوالي بين ذلك الى ان يقرب منه ويأمره بالجلوس وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد بل كان جالساً على عادته في غير ايام التعزية .

وفاته

كان الصاحب يردد في سنة وفاته قوله

اناخ الشيب ضيفا لم ارده   ولكن لا اطيق له مردا
رداء للردى فيه دليل   تردى من به يوماً تردى

قال الثعالبي في يتيمة الدهر ولما كنى المنجمون عما يعرض له في سنة موته وقال :

يا مالك الارواح والاجسام   وخالق النجوم والاحكام
مدبر الضياء والظلام   لا المشتري ارجوه للانعام
ولا اخاف الضر من بهرام   وانما النجوم كالاعلام
والعلم عند الملك العلام   يا رب فاحفظني من الاسقام

ووقني حوادث الايام وهجنة الاوزار والآثام
هبني لحب المصطفى المعتام وصنوه وآله الكرام

وكتب بخطه على تحويل السنة التي دلت على انقضاء عمره :

اری سنتي قد ضمنت بعجائب وربي يكفيني جميع النوائب
ويدفع عني ما اخاف بمنه ويؤمن ما قد خوفوا من عواقب
اذا كان من اجرى الكواكب امره معيني فما اخشى صروف الكواكب
عليك ايا رب السماء توكلي لحفظي من شر الخطوب الحوارب
وكم سنة حذرتها فتزحزحت بخير واقبال وجد مصاحب
ومن اضمر اللهم سوءا لمهجتي فرد عليه الكيد اخيب خائب
فلست اريد السوء بالناس انما اريد بهم خيرا مريع الجوانب
وادفع عن اموالهم ونفوسهم بجدي وجهدي باذلا للمواهب
ومن لم يسعه ذاك مني فانني سأكفاه ان الله اغلب غالب

ولما اعتل كان امراء الديلم وكبراء الناس يروحون الى بابه ويغدون ويخدمون بالدعاء وينصرفون وبلغه عن بعض اصحابه شماتة فقال :

وكم شامت بي بعد موتي جاهلا بظلمي يسل السيف بعد وفاتي

ولو علم المسكين ماذا يناله من الظلم بعدي مات قبل مماتي

ووجد في بعض ايام مرضته التي توفي فيها خفة فاذن للناس وحل وعقد وامر ونهى واملى كتبا تعجب الحاضرون من حسنها وفرط بلاغتها

وقال :

كلامنا من غرر وعيشنا من غرر

اني وحق خالقي على جناح السفر

وعاده فخر الدولة عدة مرات فقال لفخر الدولة اول مرة وهو على يأس من نفسه : قد خدمتك ايها الامير خدمة استفرغت قدر الوسع وسرت في دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر بها فان اجريت الامور بعدي على نظامها وقررت القواعد على احكامها نسب ذلك الجميل السابق اليك ونسيت انا في الثناء ما يثنى به عليك ودامت الاحدوثة الطيبة لك وان غيرت ذلك وعدلت عنه كنت انا المشكور على السيرة السالفة وكنت انت المذكور بالطريقة الآنفة وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك . فاظهر فخر الدولة قبول رأيه .

فلما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة

خمس وثمانين وثلاثمائة توفي الصاحب وقد قارب الستين من عمره فاغلقت مدينة الري واجتمع النـاس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته وحضر فخر الدولة اولاً وسائر القواد وقد غيروا لباسهم فلما خرج نعشه من الباب على اكتـاف حامليه للصلاة عليه قـام الناس باجمعهم اعظامـاً وصاحوا صيحة واحدة وقبلوا الارض وخرقوا ثيابهم ولطموا وجوههم وبلغوا في البـكاء والنحيب عليه جهدهم وصلى عليه ابو العباس الضبي ومشى فخر الدولة امام الجنازة وقعد للعزاء اياماً وبعد الصلاة عليه علق نعشه بالسلاسل في بيت الى ان نقل الى اصبهان فدفن في قبة هناك تعرف بباب دزية قال ابن خلـكان : وهي عامرة الى الآن واولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض .

وكانت مدة وزارة الصاحب لمؤيد الدولة واخيه فخر الدولة ثماني عشرة سنة وشهوراً ولم يـكن له من الاولاد غير بنت واحدة زوجها من ابي الحسين علي بن الحسين الحسني الهمذاني فرزق منها عباد بن علي .

اما فخر الدولة فانه لم يحفظ عهد الصاحب بعد وفاته فقد ورد في ذيل تجارب الامم ان ابا محمد خازن الـكتب كان ملازماً

دار الصاحب في مرضه على سبيل الخدمة وهو عين لفخر الدولة عليه فلما توفي الصاحب بادر باعلامه الخبر فانفذ فخر الدولة ثقاته وخواصه حتى احتاطوا على الدار والخزائن ووجدوا كيساً فيه رقاع اقوام بمائة وخمسين الف دينار مودوعة له عندهم فاستدعاهم وطالبهم بالمال فاحضروه وكان فيه ما هو بختم مؤيد الدولة ونقل جميع ما كان في الدار والخزائن الى دار فخر الدولة ثم قبض على اصحاب ابن عباد . وكان الصاحب قد احسن الى القاضي عبد الجبار المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري فلما توفي قال القاضي لا ارى الترحم عليه لانه مات عن غير توبة ظهرت منه فنسب الى قلة الوفاء .

ورثى الصاحب كثير من الشعراء كالشريف الرضي وابي القاسم الاصبهاني وابي سعيد الرستمي وابي الفياض الطبري وابي العباس العلوي الهمذاني وغيرهم ولعل مرثية الشريف الرضي احسن ما قيل فيه لانه ذكر فيها ما امتاز به الصاحب من الصفات وعرض بما فعله فخر الدولة بعد وفاة الصاحب ووصف جزع الناس يوم تشييع جنازته وهذه طائفة منها :

يا طالب المعروف حلق نجمه   حط الحمول وعطل الاجمالا

واقم على بأس فقد ذهب الذي كان الانام على نـداه عيالا
من كان يقري الجهل علما ثاقبا والنقص فضلا والرجاء نوالا
ويجبن الشجعان دون لقائه يوم الوغى ويشجع السؤالا
يا آمر الاقدار كيف اطعتها او ما وقاك جلالك الآجالا
كم حجة في الدين خضت غمارها هدر الفنيق تخمطاً وصيالا
بسنان رمحك اولسانك موسعاً طعناً يشق على العدى وجدالا
ان نكس الاسلام بعدك رأسه فلقد رزي بك موئلا ومآلا
وآها على الأقلام بعدك انهـا لم ترض بعد بنان كفك آلا
افقدن منك شجاع كل بلاغة ان قال جلّى في المقـال وجالا
من لو يشا طعن العدى بروؤسها وأثار من جريالها قسطالا
سلطان ملك كنت انت تعزه ولرب سلطان اعز رجالا
ان المشمر ذيله لك خيفة ارخى وجرر بعدك الاذيالا
طلبوا التراث فلم يروا من بعده الا علاً وفضـائلاً وجلالا
هيهات فاتهم تراث مخـاطر حفظ الثنـاء وضيع الاموالا
قد كان اعرف بالزمان وصرفه من ان يثمر او يجمع مالا
مفتاح كل ندى ورب معاشر كانوا على اموالهم اقفـالا
كان الغريبة في الانام فاصبحوا من بعد غارب نجمه امثالا

من فاعل من بعده كفعاله او قـائل من بعده ما قالا
سمع يرفع للسؤال سجوفه ويحجب الاهزاج والارمالا
يا طالباً من ذا الزمان شبيهه هيهـات كلفت الزمان محالا
ان الزمان اضن بعد وفاته من ان يعيد لمثله اشكالا
وارى الكمال جنى عليه لانه غرض النوائب من اعير كمالا
طرح الرجال لك العمائم حسرة لمـا رأوك تسير او اجلالا
قالوا وقد لجئوا بنعشك سائراً من ميل الجبل العظيم قمالا
وتبادروا اعط الجيوب وعاجلوا عض الاتامل يمنة وشمـالا
ما شققوا الا كسـاك وآملوا الا انامل املن منك سجـالا
قد كنت آمل ان اراك فاجتني فضلا اذا غيري جنى افضالا
وافيد سمعك منطقي وفضائلي ونفيدني ايامك الاقبالا
واعد منك لريب دهري جنة لثني جنود خطوبه فلالا
فطواك دهرك غير طي صيانة واعاد اعلام العلى اغفـالا

ومر ابو العباس الضبي بباب الصاحب بعد وفاته فقال :

ايها الباب لم علاك اكتئاب اين ذاك الحجاب والحجاب
اين من كان يفزع الدهر منه فهو اليوم في التراب تراب

ولما استوزر ابو العباس الضبي ولقب بالرئيس وضم اليه ابو

علي ابن حمولة ولقب بالجليل بعد موت الصاحب قال بعض بني المنجم :

والله والله لا افلحتم ابداً بعد الوزير ابن عباد بن عباس

ان جاء منكم جليل فاجلبوا اجلي او جاء منكم رئيس فاقطعوا رامي

قال ابو القاسم بن ابي العلاء الشاعر الاصبهاني : رأيت في المنام قائلاً يقول لي : لمَ لمْ ترث الصاحب مع فضلك وشعرك ؟ فقلت : الجمتني كثرة محاسنه فلم ادر بم ابدأ منها وقد خفت ان اقصر وقد ظن بي الاستيفاء فقال : اجز ما اقوله فقلت قل فقال :

ثوى الجود والكافي معاً في حفيرة

فقلت : ليأنس كل منهما بأخيه

فقال : هما اصطحبا حيين ثم تعانقا

فقلت : ضجيعين في لحد بباب ذريه

فقال : اذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم

فقلت : اقاما الى يوم القيامة فيه

صفته واخلاقه

الصاحب ابن عباد علم من اعلام القرن الرابع جمع بين الوزارة والكتابة والسيف والقلم وكان صدراً في العلم والادب وغاية في الكرم وجلالة القـدر وفرداً في الرياسة وكثرة الفضائل فمحاسنه تربو كثيراً على زلاته ٠

هو تلميذ ابن العميد وصنيعته ووارثه في الوزارة والطابع على غراره في السياسة والادب والمربي عليه في الجود والابهة ٠

يتشابه الوزيران في الادب ومناحيه واساليبه ويختلفان في العلم والاخلاق فابن العميد طويل البـاع في الفلسفة وفروعها غير متمكن من العلوم الدينية راجح العقل قليل الكلام ذو تؤدة وروية في اعماله واقواله لا يحب التعاظم والتبجح في علمه وعمله ٠ والصاحب عالم في اصول الدين وفروعه يقدم النص على العقل منحرف عن الفلسفة واصحابها معجب بنفسه فخور بعلمه وادبه مأخوذ بمظاهر العظمة والخيلاء تيّاه على الكبراء والرؤساء حاضر البديهة قوي الحجة شديد العارضة طلق اللسان محكم الجواب سريع النكتة كثير

الجدل يتكلم بلسانه واعضائه قال ابو حيان التوحيدي : « كان ابو الفضل ابن العميد اذا رأى الصاحب قال : احسب ان عينيه ركبتا من زئبق وعنقه عمل بلولب · وصدق فانه كان ظريف التثني والتلوي شديد التفكك والتفتل كثير التعوج والتموج » وهو مع ذلك مشوه الصورة كما قيل ·

قال الثعالبي في يتيمة الدهر : « ليست تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عن علو محله في العلم والادب ، وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه اشتات المفاخر ، لان همة قولي تنخفض عن بلوغ ادنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفي يقصر عن ايسر فواضله ومساعيه · ولكني اقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، و ينبوع العـدل والاحسان ، ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ماقامت للفضل في دهرنا سوق · وكانت ايامه للعلوية والعلماء ، والادباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضائلهم ، ومترع آمالهم ، واموالة مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وانعام يجدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه او يسمعه »

مذهبه

كان عباد والد الصاحب ينصر مذهب الاعتزال وكان ولده الصاحب يتشيع بمذهب ابي حنيفة ومقالة الزيدية يفضل علياً ويرى صحة امامة الخلفاء الثلاثة قبله وله في ذلك كتاب اسمه الامامة في تفضيل علي وتصحيح امامة من تقدمه والصاحب نفسه يقول :

حب علي بن ابي طالب هو الذي يهدي الى الجنه
ان كان تفضيلي له بدعة فلعنة الله على السنه

ونسب اليه صاحب كتاب الفرق بين الفرق هذين البيتين :

دخول النار في حب الوصي وفي تفضيل اولاد النبي
احب اليّ من جنات عدن اخلدها بتيم اوعدي

وكتب الصاحب الى الشريف ابي طالب رسالة ورد فيها : (... فاني[1] له ومنه ومختلط بالولاء معه ..... وقد قال الصادق عليه السلام نحن الاعلون وشيعتنا العلويون وقبله ماروي مولى القوم منهم)

وكان يبغض معلوية وينال من يزيد قال :

---

(١) المختار من ديوان رسائل للصاحب ابن عباد ص -٢٢ (مخطوط)

فاصبح قال لي معاوية خا　　لك خير الاعمام والاخوال
فهو خال للمؤمنين جميعاً　　قلت خالي لكن من الخير خالي

قال سهل بن المرزبان كان الصاحب اذا شرب ماء بثلج انشد على أثره :

قعقعة الثلج بماء عذب　　تستخرج الحمد من اقصى القلب

ثم يقول اللهم جدد اللعن على يزيد ·

وكان مثل والده يذهب مذهب المعتزلة في الاصول ويقول بخلق القرآن وينكر الجبر قال الصاحب :

تعرفت بالعدل(1) في مذهبي　　ودان بحسن جدالي العراق
فكلفت في الحب مالم اطق　　فقلت بتكليف مالا يطاق

وقال ايضاً :

كنت دهراً اقول بالاستطاعه　　وارى الجبر ضلة وشناعه
ففقدت استطاعتي في هوى ظبي　　فسمعاً للمجبرين وطاعه

ووقع في رقعة لأبي الحسن الشقيقي البلخي « من نظر لدينه نظرنا لدنياه ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان اقمت على الجبر ، فليس لكسرك من جبر »

---

(1) يسمى المعتزلة اهل العدل والتوحيد ·

وقا ابو محمد الخازن يمدحه :

كذاك توحيده الوى باربعة ... كفر وجبر وتشبيه وارجاء

وقال ابو سعيد الرستمي فيه :

فنصبت للاسلام اكرم راية ... وقصمت اهل الجبر والالحاد

وقال السلامي يهجوه :

يا ابن عباد بن عبا ... س بن عبد الله حرها

تنكر الجبر واخرج ... ت الى العالم كرها

وقال قوم من اهل اصبهان للصاحب لو كان القرآن مخلوقا لجاز ان يموت ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان ؟ قال لو مات القرآن كان رمضان يموت ايضاً ويقول لا حياة لي بعدك ولا نصلي التراويح ونستريح .

و كان الصاحب يجادل الناس و يدعوهم لمذهبه قال في بعض رسائله . (... فقد[1] كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على اهل عدل الله وتوحيده ،والتصديق بوعده ووعيده ،هذا وفي فقهائها وفور ،وفي الفضل بها ظهور ، وقد اعان الله على بث كلمة الحق،وسمع الاكثر على لين ورفق ، وليس تمنعني كثرة

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٢٠٥ و٢٠٦ (مخطوط)

شغلي ، من الانتصاب في بعض ليالي ، للمذاكرة والتبيين ، والتكشيف والتخليص فقد صلح خلق كثير والحمد لله رب العالمين)

ومن كتاب له الى اهل الصيمرة (... كنتم بحمد الله ومنه وطوله وفضله ، المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله ، وصدقه في وعيده ووعده ، كان بلدكم من بين البلاد كغرة ادهم ، وشهاب في ليل مظلم ، وما في النعم أجل موقعاً ، واهنأ مشرعاً ، من النعمة في القول بالحق والدعاء اليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانة من شبه الله بخلقه فتتابع في جهله ، او جوره في فعله فشك في حسن نظره وطوله ، والحمد لله الذي جمع على كل الصدق آراءنا ، وحمى من مكايد الشيطان اهواءنا ، يزيدنا تسديداً وتأييداً ، وتثبيتاً وتمهيداً ، ويوفقنا لصالح الاعمال ، كما وفقنا لصالح الاقوال)

وقال أبو حيان التوحيدي : دخل الناس في مذهب ابن عباد وقالوا بقوله رغبة فيما لديه واجتهد بالحسين المتكلم الكلابي ان ينتقل الى مذهبه فقال الحسين دعني ايها الصاحب اكون مستعداً لك مما بقي غيري فان دخلت في المذهب لم يبق بين يديك من ينبو عليك قبيحه ويبدو للناس عواره فضحك

الصاحب وقال قد اعفيناك يا ابا عبدالله وبعد فما نبخل عليك بنار جهنم اصل بها كيف شئت .

وزعم ابو حيان التوحيدي ان الصاحب شديد التعصب على اهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس له من الجزء الآلهي خبر ولا له فيه عين ولا أثر وانه كان يسب اصحاب الهندسة وانه سمعه بالري يقول : طبع العقل على ان يشهد للباطل كما يشهد للحق ولهذا اختلف العقلاء في جميع امر الدين والدنيا .

وقال صاحب معاهدا لتنصيص: كان الصاحب يبغض من يميل الى الفلسفة .

وقال ابوحيان التوحيدي في مثالب الوزيرين قال الصاحب : جاءني بعض الحمقى ورغبني في الهندسة فابتدأ فاثبت خمسة وعشرين وخط خطاً ووضع شكلا وطول وزعم انه يعمل برهانا على ذلك فقلت له كنت اعرف ان هذا خمسة وعشرون ضرورة وقد شككت الآن فانا مجتهد حتى اعلم بالاستدلال وهذا هو الخسار

وهكذا فان الصاحب وان كان معتزليا في الاصول فان طريقته العملية في البحث طريقة اهل الحديث الذين يعتدون

بالنص اكثر من سائر الادلة وذلك لعنايته بالحديث وروايته وسنقف على ذلك عند الكلام على علمه ٠

كرمه

من اظهر صفات الصاحب الكرم وكثرة البذل واصطناع المعروف فهو مطبوع على السخاء منذ حداثته لان امه كانت تعطيه وهو صغير في كل يوم دينارا ودرهماً ليتصدق بهما على اول فقير يلقاه في طريقه الى المسجد الذي كان يدرس به ٠ وهو اكثر بذلا من ابن العميد ولقد مر بك في الصفحة العاشرة من هذه الرسالة ان الصاحب انكر في نفسه على ابن العميد عدم اكرامه لضيوفه في عشية من عشايا شهر رمضان ٠ على ان جود الصاحب لا يمكن ان يكون كله خالصاً لوجه الله وللبر والاحسان فكثير منه كان بدافع حب الذات لان الجود من اعظم اسباب الشهرة وامتلاك القلوب وتخليد الذكر وامتداد السلطة والصاحب وزير مغرى بالعظمة والقوة وحب الاطراء واشاعة الذكر والاشادة بمروءته وفضائله ومامن وسيلة انجع من الكرم لبلوغ تلك الغاية لذلك فقد عظمت عطاياه للشعراء الذين يمدحونه حتى عرض على المتنبي ان يشاطره ماله في سبيل قصيدة يقولها المتنبي فيه ٠

كان لا يدخل عليه احد في شهر رمضان بعد العصر كائنا من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار وكانت داره لا تخلو ليلة من ليالي الشهر من الف نفس مفطرة وكانت صلاته وصدقاته ونفقته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع السنة ٠

وكان يراعي من ببغداد والحرمين من شيوخ الكتاب والشعراء واولاد الادباء والزهاد والفقهاء بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم فكان ينفذ الى بغداد من ذلك خمسة الاف دينار في كل سنة تفرق على الفقهاء والادباء وكان يحمل الى ابي اسحق الصابي خمسماية دينار والى حفيده هلال الف درهم

قال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي : كان ما ما يخرج الكافي الكفاة في السنة في وجوه البر والصدقات والمبرات وصلات الاشراف واهل العلم والغرباء الزوار ومن يجري مجرى ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا واجر الآخرة يزيد على مائة الف دينار ٠

وقال الثعالبي : حدثني عوف بن الحسين الهمذاني التميمي

قال : كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في ثبت حسابات كاتبها وكان صديقي مبلغ عمائم الخز التي صرفت في تلك الشتوية للعلويين والفقهاء والشعراء خاصة غير الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين . قال : وكان يعجبه الخز ويأمر بالاستكثار منه في داره فنظر ابو القاسم الزعفراني يوماً الى جميع ما فيها من الخدم والحاشية عليهم الخزوز الملونة الفاخرة فاعتزل ناحية واخذ يكتب شيئاً فسأل الصاحب عنه فقيل له : إنه في مجلس كذا يكتب فقال : عليّ به فاستمهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه فاعجله الصاحب وأمر ان يؤخذ ما في يده من الدرج فقام الزعفراني اليه وقال : ايد الله الصاحب

اسمعه ممن قاله تزدد به   عجباً فحسن الورد في اغصانه

فقال : هات يا أبا القاسم فانشده ابياتاً منها :

سواك يعد الغنى ما اقتنى   ويأمره الحرص ان يخزنا
وانت ابن عباد المرتجى   تعد نوالك نيل المنى
وخيرك من باسط كفه   وممن ثناها قريب الجنى
غمرت الورى بصنوف الندى   فاصغر ما ملكوه الغنى

وغادرت اشعرهم مفحما واشكرهم عاجزا الكنا
ايامن عطاياه تهدي الغنى الى راحتي من نأى او دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسي لم نخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخز الا انا
ولست اذكر لي جاريا على العهد يحسن ان يحسنا

فقال له الصاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة ان رجلاً قال له : احملني ايها الامير فأمر له بفرس وبغلة وحمار وناقة وجارية ثم قال : لو علمت ان الله تعالى خلق مركوبا غير هذه لحملتك عليه . وقد امرنا لك من الخز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجوربه ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لاعطيناكه ثم امر بادخاله الخزانة وصب تلك الخلع عليه وتسليم ما فضل عن لبسه في الوقت الى غلامه ·

ومرض الصاحب وهو في الاهواز بالاسهال فكان اذا قام عن الطست ترك الى جانبه عشرة دنانير حتى لا يتبرم به الخدم فكانوا يودون دوام علته ولما عوفي تصدق بنحو من خمسين الف دينار ·

مكارم اخلاقه

كان الصاحب على علو مكانته وتعاظمه سهل الجانب لاخوانه فانه كان يقول لجلسائه : نحن بالنهار سلطان و بالليل اخوان وقد رويت له حوادث تدل على مكارم اخلاقه وحسن تهذيبه وسعة صدره من ذلك انه استدعى يوماً شراباً من شراب السكر فجيئ بقدح منه فلما اراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم وكان الغلام الذي ناوله واقفاً فقال للمحذر : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال : بان تجربه في الذي ناولك اياه قال : لا استجيز ذلك ولا استحله قال : فجربه في دجاجة قال : ان التمثيل بالحيوان لا يجوز وامر بصب ما في القدح وقال للغلام انصرف عني ولا تدخل داري بعدها واقر رزقه عليه وقال : لا يدفع اليقين بالشك والعقوبة بقطع الرزق نذالة .

لكن هذا الرجل الذي تحرج عن تجريب شراب مشكوك بسمه في دجاجة اقدم على سم علي بن كامة كما روى ذلك صاحب ذيل تجارب الامم وستطلع على تفصيل هذه الحادثة فيما يأتي .

ورفع الى الصاحب بعض منهي الاخبار ان رجلاً ممن ينطوي له على غير الجميل يدخل داره في غمار النـاس ثم يتلوم على استراق السمع فوقع الصاحب : دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان ·

وقال ابو منصور البيع دخلت يوماً على الصاحب فطاولته الحديث فلما اردت القيام قلت لعلي طولت فقال لا بل تطولت ·

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كان الصاحب يقسم لي من اقباله واكرامه بجرجان اكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه به وتواضعه لي فانشدني لنفسه :

اكرم اخاك بارض مولده   وامده من فعلك الحسن
فـالعز مطلوب وملتمس   واعزه ما نيل في الوطن

ثم قال لي قد فرغت من هذا المعنى في العينية فقلت لعل مولانا يريد قولي :

وشيدت مجدي بين قومي فلم اقل   الا ليت قومي يعلمون صنيعي

فقال ما اردت غيره ·

وكان الصاحب قد جعل القاضي عبد الجبار قاضي القضاة

بهمذان والجبال فاستقبله يوماً ولم يترجل له وقال له ايها الصاحب اريد ان اترجل للخدمة ولكن العلم يأبى ذلك وكان يكتب في عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه عبد الجبار ابن احمد » ثم كتب « وليه عبد الجبار بن احمد » ثم كتب « عبد الجبار بن احمد » فقال الصاحب لندمائه اظنه يؤول امره الى ان يكتب « الجبار » ·

وقال الصاحب : ماقطعني الا شاب بغدادي ورد علينا الى اصبهان فقصدني فاذنت له وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل طاق فنظرت الى حاجبي فقال له وهو يصعد اليّ اخلع نعلك فقال ولم لعلني احتاج اليها بعد ساعة فغلبني الضحك وقلت اتراه يريد ان يصفعني بها ·

جلالة قدره

الصاحب من افراد الوزراء الذين علت منزلتهم وعظمت قدرتهم ووفرت مهابتهم في نفوس الناس فانه كان يحب التعاظم والبذخ والخيلاء ولقد مر فيما تقدم من سيرته حوادث تدل على ذلك وفيما يأتي تتمة لما سبق ·

كان الرجل مفتوناً بمظاهر الابهة والعظمة فاذا بدا منه

ما يدل على الرفق واللين والمباسطة فانه يرمي من ورائه لزيادة اعجاب الناس به وتعظيمه فلقد روي عنه انه كان يلبس القباء تخففاً بالوزارة وانتساباً معها الى الجندية وهذا نوع من الذهاب بالنفس ظاهره الدماثة وباطنه الزهو ٠

قال ابو النصر بن خواشاده : ما غبطت احداً على منزلة كما غبطت الصاحب ابا القاسم ابن عباد فانا كنا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية فدخل الصاحب الى داره في البلد آخر نهار يوم لحضور المجلس الذي يعقده لاهل العلم وتحته دابة رهواء وقد ارسل عنانه فرأيت وجوه الديلم واكابرهم من اولاد الامراء يعدون بين يديه كما تعدو الركابية ٠

وقال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي : اما امر الوزارة في ايام فخر الدولة فكانت اشهر من ان يحتاج الى ذكرها فان اول وزرائه كان كافي الكفاة واسنة الاقلام وعذبات الالسنة تكل دون ايسر اوصافه وادنى فضائله فان ابناء الملوك والامراء والقواد وسائر من ساواهم من الزعماء الكبار مثل اولاد مؤيد الدولة و ٠ ٠ ٠ يحضرون بباب داره فيقفون على

دوابهم مطرقين لا يتكلم واحد منهم هيبة واعظاماً لموضعه الى ان
يخرج احد خلفاء حجابه فيأذن لبعض اكابرهم ويصرفهم جملة فكان
من يؤذن له في الدخول يظن انه بلغ الآمال ونال الفوز
بالدنيا والآخرة فرحاً ومسرة وشرفاً وتعظيماً فاذا حصل في
الدار واذن له في الدخول الى مجلسه قبل الارض عند وقوع
بصره عليه ثلاث مرات او اربعاً الى ان يقرب منه فيجلس من
كانت رتبته الجلوس الى ان يقضي كل واحد منهم وطره من
خدمته ثم ينصرف بعد ان يقبل الارض ايضاً مراراً. ولم يكن
يقوم لاحد من الناس ولا يشير الى القيام ولا يطمع منه
احد في ذلك ونزل بالصيمرة عند عوده من الاهواز فدخل
عليه شيخ من زهاد المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحق فقام له
فلما خرج التفت كافي الكفاة وقال ما قمت لاحد مثل هذا
القيام منذ عشرين سنة وانما فعل ذلك به لزهده فانه كان احد
ابدال دهره . فاما العلم فقد كان يرى من هو اعلم منه فلا يحفل
به. واما هيبته في الصدور ومخافته في القلوب وحشمته عند
الصغير والكبير والبعيد والقريب فقد بلغت الى ان
كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه

ويسك عما تشره اليه نفسه لمكانه وقد ظهر ذلك للناس
بعد موته وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته فعلم انه
كان يزم نفسه لحشمته ثم كان يحله محل الوالد اكراماً واعظاماً
ويخاطبه بالصاحب شفاهاً وكتاباً . فاما اكابر الدولة فكان
الواحد اذا رأى احد حجابه بل احد الاصاغر من حاشيته فان
فرائصه كانت ترتعد وجوانحه كانت تصطفق الى ان يعلم
ما يريده منه ويخاطبه به . وتظلمت اليه امرأة من صاحب
لفولاذ بن ما نادر وذكرت انه ينازعها في حق لها فما زاد على
ان التفت الى فولاذ وكان في موكبه يسير خلفه فبهت
وتحير وارتعد ووقف ولم يبرح الى ان سار كافي الكفاة
ثم ارسل مع المرأة من ارضاها وازال ظلامتها ومثل هذا
كثير . واما اسبابه وحاشيته وهيبته ورتبته فان من ايسرها
ان كان له عدة من الحجاب منهم من على مربطه ثلاثمائة
رأس من الدواب او ما يقاربها وكانت احوال بلكا الحاجب
تزيد على ذلك زيادة كثيرة .

وقال الوزير ابو سعد ايضاً : كان نصر بن الحسن بن
الفيروزان خال فخر الدولة مقداماً شجاعاً قليل المبالاة قد

استعصى على فخر الدولة واقتطع قطعة من بلاده وتغلب عليها
واحتال على جماعة من عسكره فقتلهم بانواع القتل ثم كسر
له عدة عساكر الى ان تكاثرت عساكر فخر الدولة فكسرته
وشتت جموعه وهرب نحو خراسان حتى صار الى اسفراين ثم
بدا له فورد الري ليلة الجمعة لست بقين من شوال سنه ٣٨٤
وقصد في الليل باب كافي الكفاة مستجيراً به ومستعطفاً
له وكنت في هذه الليلة بحضرة كافي الكفاة فأتاه الحاجب
وقد مضى هزيع من الليل فاخبره بوقوف نصر بن الحسن
ابن الفيروزان على الباب خاشعاً متضرعاً فرأيته قد تحير في
الامر ساعة ثم راسله بان السلطان الاعظم (يعني فخر الدولة)
ساخط عليك ولا يجوز لي ان آذن لك في دخول داري الا
بعد ان نترضاه ونستعطف قلبه فاذا عفا عنك ورجع لك
فالدار بين يديك وانا معين لك فعاد الحاجب اليه بذلك
ورجع فقال انه امتنع من العود وقال انما جئت الى الصاحب
لائذا به ومنقطعاً اليه ولا اعرف غيره وهو يحتاج ان يدبر
امري ويجيرني ويحامي عليّ ويذب عني واستمر على الالحاح
في الخضوع والاجتهاد أن يأذن له في الدخول وانتقل من

الباب الكبير الى باب الخاصة وسأل واجتهد .

رضاه عن نفسه

أما رضاه عن نفسه فقد ادى به الى الاعجاب والتيه وما مر بك من سيرته يدل على انه كان يذهب بنفسه بعيداً حتى يوردها موارد الغرور ويستحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره فانه كان يعيب التيه و يتيه ولا ينصف مناظره وما رواه عنه ابو حيان التوحيدي في هذا الباب هو ادنى الى الرقاعة كقوله « أنا واحد هذا العالم وانت بما تسمع عالم » وكقوله : « كان ابو الفضل — ابن العميد — سيداً ولكن لم يشق غبارنا ولا ادرك شوارنا ولا فسح عذارنا ولا عرف غرارنا لا في علم الدين ولا فيما يرجع الى نفع المسلمين فاما ابنه فقد عرفتم قدره في هذا وفي غيره طياش قلاش ليس عنده الا قاش وقماش مثل ابن عياش والمروي الحواش . وولدت والشعرى في طالعي ولولا دقيقة لادركت النبوة ، وقد ادركت النبوة اذ قمت بالذب عنها والنصرة لها فمن ذا يجارينا او يبارينا ويغارينا ويسارينا ويشارينا .

وعجب الصاحب بنفسه ظاهر في افعاله وشائع في اقواله حتى انه يتيه على من يتغزل به كقوله :

وشادن جماله تقصر عنه صفتي
اهوى لتقبيل يدي فقلت لا بل شفتي

وقال ابو حيان « ... ومع هذا يخدعه — اي الصاحب — الصبي ويخلبه الغبي لان المدخل عليه واسع والمأتى اليه سهل وذلك بان يقال : مولانا يتقدم بان اعار شيئاً من كلامه ورسائله منظومه ومنثوره فما جبت الارض اليه من فرغانة ومصر وتفليس الا لاستفيد كلامه وافصح به واتعلم البلاغة منه ا‌‌ـكأنما رسائل مولانا سور قرآن وفقره فيها آيات فرقان واحتجاجه من اثنائها برهان فسبحان من جمع العالم في واحد وابرز جميع قدرته في شخص . فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم وينسى كل فريضة عليه ويتقدم الى الخازن بان يخرج اليه رسائله مع الورق والورق ويسهل الاذن عليه والوصول اليه والتمكن من مجلسه .

وقال ابو حيان ايضاً : ناظر (الصاحب) بالري اليهودي رأس الجالوت في اعجاز القرآن فراجعه اليهودي فيه طويلا ومانسه

قليلا وتنكد عليه حتى احتد وكاد يتقد فلما علم انه قد سحر بنوره [1] واسعط انفه احتال طلباً لمضادته ورفقاً به في مخاتلته فقال ايها الصاحب فلم تنقد وتستشيط وتلتهب وتختلط كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعي عنه عاجزين وله مذعنين وها انا اصدق عن نفسي واقول ما عندي ان رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظما ونثراً هو فوق ذلك او مثل ذلك وقريب منه وعلى كل حال فليس يظهر لي انه دونه وان ذلك سيستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام او بمرتبة من مراتب البلاغة . فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد وسكن عن حركته وانمحص ورمه به وقال ولا هكذا يا شيخ كلامنا حسن وبليغ وقد اخذ من الجزالة حظاً وافراً ومن البيان نصيباً ظاهراً ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل والشرف الذي لا يخمل واين ما خلقه الله على اتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف . هذا كله يقوله وقد خبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رماداً مع اعجاب شديد قد شاع في اعطافه وفرح

(1) كذا بالاصل ولعله سجر تنوره .

غالب قد دب في اسارير وجهه .

وقال هلال بن المحسن : وردالى الصاحب رجل من اهل الشام ، فكان فيما استخبره عنه ، رسائل من تقرأ عندكم ؟ فقال رسائل ابن عبد كان ، قال ومن ؟ قال رسائل الصابيء وغمز احد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن فرآه الصاحب فقال تغمز حماراً لا يحس .

وقال الثعالبي في برد الاكباد : قال الصاحب ابن عباد : كتّاب العصر اربعة الاستاذ الرئيس يعني ابن العميد والاستاذ ابو القاسم يعني عبد العزيز بن يوسف وابو اسحق يعني الصابي ولو شئت لذكرت الرابع « يعني نفسه »

حبه للعرب وبغضه الشعوبية

الصاحب وان كان فارسي النسب فانه عربي الدين والادب . وقد كان حبه للاسلام واطلاعه على علوم الدين واعجابه بادب العرب غالباً على عصبيته الفارسية لذلك فهو يحب العرب ويبغض الشعوبية من الفرس ومن شعره في هذا المعنى قوله في رجل يتعصب للعجم على العرب ويعيب العرب بأكل الحيات :

يا عائب الاعراب من جهله … لأكلها الحيات في الطعم

فالعجم طول الليل حياتهم · تنساب في الاخت وفي الام

علمت مما تقدم ان الصاحب لم يكن له من الاولاد غير بنت زوجها من الشريف ابي الحسين علي بن الحسين الحسني فلما اتته البشارة بسبطه عباد انشأ يقول :

احمد الله لبشرى · اقبلت عند العشي
اذ حباني الله سبطاً · هو سبط للنبي
مرحباً ثمة اهلاً · بغلام هاشمي
نبوي علوي · حسني صاحبي

ثم قال :

الحمد لله حمداً دائماً ابدا · اذ صار سبط رسول الله لي ولدا

ومثل ذلك ما حدث به بديع الزمان الهمذاني عن نفسه قال : كنت عند الصاحب ابن عباد فأتاه رجل بقصيدة يفضل فيها العجم على العرب وهي :

غنينا بالطبول عن الطلول · وعن عنس عذافرة ذمول
واذهلني عقاري عن عقاري · ففي است ام القضاة مع العدول
فلست بتارك ايوان كسرى · لتوضح او لحومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب · بها يعوي وليث وسط غيل

اذا ذبحوا فذلك يوم عيد وان نحروا ففي عرس جليل
يسلون السيوف برأس ضب هراشاً بالغداة وبالاصيل
بأية رتبة قدمتموها على ذي الاصل والشرف الجليل
الا لو لم يكن للفرس الا نجار الصاحب العدل النبيل
لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل

فلما بلغ الى هنا قال له الصاحب قدك ، ثم اشرأب ينظر الى الزوايا واطراف القوم فلم يرني وكنت في زاوية من زوايا البيت فقال اين ابو الفضل فوثبت وبست الارض بين يديه فقال اجبه عن ثلاثتك ، قلت وما هي ؟ قال ادبك ونسبك ومذهبك فقلت ولا مهلة للقول الا بما تسمع :

اراك على شفا خطر مهول بما اودعت نفسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلا متى احتاج النهار الى دليل
السنا الضاربين جزى عليهم فان الجزي اقعد بالذليل
متى فرع المنابر فارسي متى عرف الاغر من الحجول
متى علقت وانت بهم زعيم اكف الفرس اعراف الخيول
فخرت بملء ماضغتيك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
وحقك ان تبار بنا بكسرى فما ثور ككسرى في الرعيل

فخرت بنحو ملبوس واكل   وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن في خـد اسيل   وفرع من مفارقها رسيل
فامجد من ابيك اذا اثرنا   عراة كالليوث وكالنصول

قال : فلما اجبته بهذه الابيات نظر الصاحب ابن عباد الى الرجل فقال : كيف ترى ؟ فقال : لو سمعت به ماصدقت؛ قال : فاذن جائزتك ان وجدتك بعدها في مملكتي امرت بضرب عنقك ، ثم قال : لاترون رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية يرجع اليها ·

وسواء اصح وقوع هذه الحادثة ام كانت ضرباً من مقامات بديع الزمان فانها تصور حب الصاحب للعرب والعربية و بغضه للشعوبية

ما اخذ عليه في اخلاقه وسيرته

حسنات الصاحب كثيرة جداً وما اخذ عليه من الزلات والهنات مروي عن ابي حيان التوحيدي الذي الف كتابا ثلب فيه ابن العميد والصاحب سماه مثالب الوزيرين وابو حيان معروف بالتزيد والوضع والمبالغة لاسيما فيما كتبه على الصاحب فانه تعصب عايه كثيراً وسلبه محاسنه كما يقول ابن خلكان ·

وذلك بعد ان صحبه فلم يبلغ منه ما كان يرجوه فتركه مغاضباً · وانا انقل هنا بعض ماذكره ابو حيان من مثالب الصاحب فانها لا تخلو من تفكهة اذا خلت من فائدة ·

قال ابو حيان : كان الصاحب لا يرجع الى الألة والرقة والرأفة والرحمة والناس كلهم يحجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبطشه · شديد العقاب طفيف الثواب طويل العتاب بذيء اللسان يعطي كثيراً قليلا (يعني يعطي الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس سريع الغضب بعيد الفيئة قريب الطيرة حسود حقود وحسده وقف على اهل الفضل وحقده سار الى اهل الكفاية اما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته واما المنتجعون فيخافون جفوته وقد قتل خلقاً واهلك ناساً ونفى امة نخوة وبغياً وتجبراً وزهواً ومع هذا يخدعه الصبي ويخلبه الغبي لان المدخل عليه واسع والمأتى اليه سهل

وقال : يعمل الصاحب في اوقات كالعيد والفصل شعراً ويدفعه الى ابي عيسى ابن المنجم ويقول له قد نحلتك هذه القصيدة امدحني بها في جملة الشعراء وكن الثالث من المنشدين فيفعل ذلك ابو عيسى وهو بغدادي محنك قد شاخ على الخدائع وتحنك وينشد

فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره اعد يا ابا عيسى فانك والله مجيد زه يا ابا عيسى قد صفا ذهنك وجادت قريحتك وتنقحت قوافيك ليس هذا من الطراز الاول حين انشدتنا في العيد الماضي ، مجالس تخرج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيدهم الفطنة وتحول الكودن عتيقا والحمر جواداً . ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنية وعطية هنيئة ويغايظ الجماعة من الشعراء وغيرهم لانهم يعلمون ان ابا عيسى لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ولا يذوق عروضا .

قال يوما من في الدار ؟ فقيل له ابو القاسم الكاتب وابن ثابت فعمل في الحال بيتين وقال لانسان بين يديه اذا اذنت لهذين فادخل بعدهما بساعة وقل قد قلت بيتين فان رسمت لي انشادهما انشدتهما وازعم انك بدهت بهما ولا تجزع من تأففي بك ولا تفزع من تكبري عليك ودفع البيتين اليه وامره بالخروج الى صحن الدار واذن للرجلين حتى وصلا فلما جلسا وانسا دخل الآخر على تفيئتهما ووقف للخدمة واخذ يتلمظ يُري انه يقرض شعراً ثم قال يا مولانا قد حضرني بيتان فان اذنت انشدت قال له انت انسان اخرق سخيف لا تقول شيئاً فيه خير اكفني امرك

وشعرك قال يا مولانا هي بديهتي وان كسرتني ظلمتني وعلى كل حال فاسمع فان كانا بارعين والا فعاملني بما تحب قال انت لحوح هات فانشد :

يا ايها الصاحب تاج العلا　　لا تجعلني نزهة الشامت
بملحد يكنى ابا قاسم　　ومجبر يعزي الى ثابت

فقال : قاتلك الله لقد احسنت وانت مسيء . قال لي ابن القسم : وكدت انفقأ غيظاً لأني علمت انها من فعلاته المعروفة وكان ذلك الجاهل لا يقرض بيتاً ثم حدثني الخادم الحديث بقضه . والذي غلطه في نفسه وحمله على الاعجاب بفضله والاستبداد برأيه اذ لم يجبه قط بتخطئة ولا قوبل بتسوئة لانه نشأ على ان يقال اصاب سيدنا وصدق مولانا ولله دره ما رأينا مثله من ابن عبد كان مضافاً اليه ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ومن ابرهيم بن العباس الصولي من صريع الغواني من اشجع السلمي اذا سلك طريقها قد استدرك مولانا على الخليل في العروض وعلى ابي عمرو بن العلاء في اللغة وعلى ابي يوسف في القضاء وعلى الاسكافي في الموازنة وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات وعلى ابن مجاهد في القرآت وعلى ابن جرير في التفسير

وعلى ارسطاطاليس في المنطق وعلى الكندي في الجزو وعلى ابن سيرين في العبارة وعلى ابي العيناء في البديهة وعلى ابن ابي خالد في الخط وعلى الجاحظ في الحيوان وعلى سهل بن هرون في الفقر وعلى يوحنا في الطب وعلى ابن زين في الفردوس وعلى عيسى بن كلب في الرواية وعلى الواقدي في الحفظ وعلى النجار في البدل وعلى ابن ثوابة في الثقفية وعلى السري السقطي في الخطرات والوساوس وعلى مزيد في النوادر وعلى ابي الحسن العروضي في استخراج المعمى وعلى بني برمك في الجود وعلى ذي الرئاستين في التدبير وعلى سطيح في الكهانة وعلى ابي الحياة خالد بن سنان في دعواه · هو والله اولى بقول ابي شريح اوس بن حجر التميمي في فضالة بن كلدة ابي دليجة :

الالمعي الذى يظن لك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

فتراه عند هذا الهذر واشباهه يتلوى و يبتسم ويطير فرحاً به وينقسم ويقول ولا كذي ثمرة السبق لهم وقصرنا ان نلحقهم او نقفو اثرهم وهو في ذلك يتشاجى ويتحايك ويلوي شدقه ويتبلع ريقه ويرد كالآخذ ويأخذ كالمتمنع ويغضب في عرض الرضى ويرضى في لبوس الغضب ويتهالك ويتمالك ويتفانك

ويتمايل ويحاكي المومسات ويخرج في اصحاب السماجات وهو مع هذا يظن انه خاف على نقاد الاخلاق وجهابذة الاحوال وقد افسده أيضاً ثقة صاحبه به وتعويله عليه وقلة سماعه من الناصح فيه ..... والله لو ان عجوزا بلهاء او امة ورهاء اقيمت مقـامه لكانت الامور على هذا السياق لانه قد امن ان يقال له لم فعلت ولم لم تفعل وهذا باب لايتفق لاحد من خدم الملوك الا بجد سعيد. ولقد نصح صاحبه المرويُ في اموال تاوية وامور من النظر عارية فقذف بازرقعة اليه حتى عرف ما فيها ثم قتل الرافع خنقاً هذا وهو يدين بالوعيد .

وقال لي الثقة من اصحابه ربماشرع في امر يحكم فيه بالخطأ فيقلبه جده صواباً حتى كأنه عن وحي واسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفية ولو جرت الامور على موضوع الرأي وفضيلة العقل لكن معلماً في مصطبة على شارع او في دار لثان فانه يخرج الانسـان بتفيهقه وتشادقه واستحقاره واستكباره واعادته وابدائه وهذه اشكال تعجب الصبيان ولا تنفرهم عن المعلمين ويكون فرحهم به سبباً للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة .

قال ابو حيان: وكان ابن عباد يقول للانسان اذا قدم عليه من أهل العلم يا أخي تكلم واستأنس واقترح وانبسط ولا ترع واحسبني في جوف مربعة ولا يروعك هذا الحشم والخدم والغاشية والحاشية وهذه المرتبة والمصطبة وهذا الطاق والرواق وهذه المجالس والطنافس فان سلطان العلم فوق سلطان الولاية فليفرخ روعك ولينعم بالك وقل ما شئت وابصر ما اردت فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف والاتحاف والاطراف والمواهبة والمقاربة والمؤانسة والمقابسة . ومن كان يحفظ ما كان يهذي به في هذا وفي غيره ويجري في هذا الميدان فيطيل حتى اذا استوفى ما عند ذلك الانسان بهذه الزخارف والحيل وسار الرجل معه في حدوره على مذهب الثقة لخاجه وضابقه وسابقه ووضع يده على النكتة الفاصلة والامر القاطع تنمر له وتغير عليه ثم قال يا غلام خذ بيد هذا الكلب الى الحبس وضعه فيه بعد ان تصب على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة سوط وعصا فانه معاند ضد يحتاج ان يشد بالقد ساقط هابط كلب وقاح اعجبه صبري وغره حلمي ولقد اخلف ظني وعدت على نفسي بالتوبيخ وما خلق الله العصا باطلاً فيقام ذلك البائس

على هذه الحالة وليس الخبر كالعيان من لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً رفيعاً ورجلاً رقيعاً .

وقال ابو حيان: حدثني الجرباذقاني الكاتب ابو بكر و كان كاتب داره قال يبلغ من سخنة عين صاحبنا انه لا يسكت عما لا يعرف ولا يسالم نفسه فيما لا يفي به ولا يكمل له ويظن انه ان سكت فطن لنقصه وان احتال وموه جاز ذلك وخفي واستتر ولا يعلم ان ذلك الاحتيال طريق الى الاغراء بمعرفة الحال وصدق القائل كاد المريب يقول خذني . وقلت وما الذي حداك على هذه المقدمة ؟ قال قال لي في بعض هذه الايام : ارفع حسابك فقد اخرته وقصرت فيه وانتهزت سكوتي وشغلي بامر الملك وسياسة الاولياء والجند والرعايا والمدن وما عليّ من اعباء الدولة وحفظ البيضة ومشارفة الاطراف النائية والدانية باللسان والعلم والرأي والتدبير والبسط والقبض والتتبع والنفض وما على قلبي من الفكر في الاموال الظاهرة والغامضة وهذا باب لعمري مطمع ومساكي عنه مغر بالفساد مولع فبادر عافاك الله الى عمل حساب بتفصيل باب باب يبين فيه امر داري وما دخل عليه امر دخلي وخرجي . قلت له هذا كله بسبب قوله هات حسابك

بما تراعيه ؟ فقال أي والله ولقد كان اكثر من هذا ولقد اختصرته . قال ابو بكر فتفردت اياماً وحررت الحساب على قاعدته واصله والرسم الذي هو معروف بين اهله وحملته اليه فأخذه من يدي وامرّ عينيه فيه من غير تثبت او فحص او مسأله فحذف به اليّ وقال : اهذا حساب ؟ اهذا كتاب ، اهذا تحرير ، اهذا تقرير ، اهذا تفصيل ، اهذا تحصيل ، والله لولا اني ربيتك في داري ، وشغلت بتخريجك ليلي ونهاري ، ولك حرمة الصبي ، ويلزمني رعاية الآباء ، لاطعمتك هذا الطومار ، واحرقتك بالنفط والقار ، وادبت بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب ، امثلي يموه عليه ؟ ويطمع فيما لديه ؟ وانا خاتمة الحسابة والكتابة ، والله ما انام ليلة الا واحصل في نفسي ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق ، اغرك مني أني اجررت رسنك ؟ واخفيت قبيحك وابديت حسنك ، غيرّ هذا الذي رفعت ، واعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم انك من الآخرة قد رجعت ، فزد في صلاتك وصدقتك ، ولا تعول على فحتك وصلابة حدقتك . قال فوالله ماهالني كلامه ولا احاك في هذيانه لاني كنت أعلم جهله في الحسابة ونقصه في هذا الباب .

فذهبت وافسدت واخرت وقدمت و كابرت وتعملت ثم رددته اليه فنظر فيه وضحك في وجهي وقال : احسنت بارك الله عليك هكذا اردت وهذا بعينه طلبت لوتغافلت عنك في اول الامر لماتيقظت في الثاني . فهذا كما ترى اعجب منه كيف شئت .

وقال ابو حيان : قال لي علي بن الحسن الكاتب هجرني « الصاحب » فى بعض الايام هجراً اضر بي و كشف مستور حالي وذهب على امري ولم اهتد الى وجه حيلة في مصلحتي وورد المهرجان فدخلت عليه في غمار الناس فلما انشد نوبتين تقدمت فانشدت فلم يهش لي ولم ينظر الي و كنت ضمنت ابياتي بيتاً له من قصيدة على روي قصيدتي فلما مرّ به البيت هب من كسله ونظر الي كالمنكر علي فطأطأت رأسي وقلت بصوت خفيض لا تلم ولا تزد في القرحة فما علي محمل وانما سرقت هذا من قافيتك لازين به قافيتي وانت بحمد الله تجود بكل علق ثمين وتهب كل در مكنون اتراك تشاحني على هذا القدر وتفضحني في هـذا المشهد ؟ فرفع رأسه وصوته وقال : يا بني اعد هذا البيت فاعدته فقال : احسنت يا هذا ارجع الى اول قصيدتك فقد سهونا عنك وطار الفكر بنا الى شأن آخر والدنيا مشغلة وصـار ذلك

ظلما بغير قصد منا ولا تعمد . قال فاعدتها وامررتها وفغرت فمي بقوافيها فلما بلغت آخرها قال : أحسنت الزم هذا الفن فانه حسن الديباجة وكأن البحتري استخلفك واكثر بحضرتنا وارتفع بخدمتنا وابذل نفسك في طاعتنا نكن من وراء مصالحك باداء حقك والجذب بضبعك والزيادة في قدرك على اقرانك . قال فلم ار بعد ذلك الا الخير حتى عراه ملل آخر فوضعني في الحبس سنة وجمع كتبي فاحرقها بالنار وفيها كتب الفراء والكسائي ومصاحف القرآن واصول كثيرة في الفقه والكلام فلم يميزها من كتب الاوائل وامر بطرح النار فيها من غير تثبت بل لفرط جهله وشدة نزقه فهلا طرح النار في خزانته وفيها كتب ابن الراوندي وكلام ابن ابي العوجاء في معارضة القرآن بزعمه وصالح بن عبد القدوس وابي سعيد الحصيري وكتب ارسطاطاليس وغير ذلك ولكن من شاء حق نفسه.

وقال الصاحب يوماً : صدر قول الشاعر ؟

والمورد العذب كثير الزحام

فسكتت الجماعة فقال ابن الداري :

يزدحم الناس على بابه

فاقبل عليه بغيظ وقال ما عرفتك الا متعجرفاً جاهلاً اما كان لك بالجماعة اسوة ؟

وعن ابي حيان : لقد بلغ من ركاكته (الصاحب) انه كان عنده ابو طالب العلوي فكان اذا سمع منه كلاماً يسجع فيه وخبراً ينمقه ويرويه يبلق عينيه وينشر منخريه ويري انه قد لحقه غشي حتى يرش على وجهه ماء الورد فاذا افاق قيل وما اصابك ما عراك ما الذي نالك وتغشاك؟ فيقول ما زال كلام مولاي يروقني ويونقني حتى فارقني لبي وزايلني عقلي وانشرحت مفاصلي وتخاذلت عرى قلبي وذهل ذهني وحيل بيني وبين رشدي فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفش ويضحك عجباً وجهلا ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني ابيه وعمه . ومن ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن اشبه وبالصبيان الضعاف امثل .

مر بك ان الصاحب تأثم من ان يجرب شراباً مشكوكاً بسمه بدجاجة لان التمثيل بالحيوان غير جائز وانه رغب الى فخر الدولة ان يعفيه من الوزارة للتوفر على امر المعاد ومع ذلك فقد روى الوزير ظهير الدين في كتابه ذيل تجارب الامم ان فخر الدولة لما انتظم له الامر عمل هو والصاحب جميعاً على اخذ على بن

كامة والاستيلاء على ماله واعماله وعلما انهما لا يقدران عليه لجلالة قدره فعدلا الى اعمال الحيلة في امره واجتمع رأيهما على موافقة شرابي كان له على سمه فتوصلا اليه وقررا امور ذلك واتفق ان علي بن كامة عمل دعوة واحتفل فيها واحتشد وسأل فخر الدولة والصاحب الحضور عنده فواعداه بذلك وراسلا الشرابي بفعل ما تقرر معه في هذا اليوم واعطياه سماً موجباً . ودخل علي بن كامة خزانة الشراب يتخير الاشربة ويذوقها فطرح الشرابي السم في بعض ما ذاقه فاحس في الحال باضطراب جسمه فدخل بيتاً وطرح نفسه فيه والقى عليه كساء وعلم فخر الدولة خبره فتأخر عن الحضور .

قال الوزير ظهير الدين : وليس العجب من فخر الدولة في سم الرجل كالعجب من الصاحب الذي سأل بالامس في الاذن له في ملازمة داره والتوفر على امر المعاد .

ولا يمكن تفسير ذلك الا بانه احدى الضرورات السياسية التي تتعدى حدود الدين والعدل والانسانية . وفي عصرنا من رجال السياسة من يهون عليه سم امة باسرها لا سم فرد منها .

اخبار الصاحب

شعراؤه

لم يجتمع بباب وزير ما اجتمع بباب الصاحب من الشعراء ولم يمدح احد بمقدار ما مدح به من القصائد قال ابن بابك سمعت الصاحب يقول: « مدحت والعلم عند الله بمائة الف قصيدة شعرا عربية وفارسية وقد انفقت اموالي على الشعراء والادباء والزوار والقصاد ما سررت بشعر ولا سرني شاعر كما سرني ابو سعيد الرستمي الاصفهاني بقوله :

ورث الوزارة كابراً عن كابر مرفوعة الاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا رته واسمعيل عن عباد»

وقال الثعالبي : ... « احتف به من نجوم الارض وافراد العصر وابناء الفضل وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الاخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني فانه لم يجتمع بباب احد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كابي نواس وابي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وابي الشيص ومروان

ابن ابي حفصة ومحمد بن مناذر وجمعت حضرة الصاحب باصبهان والري وجرجان مثل ابي الحسن السلامي وابي بكر الخوارزمي وابي طالب المأموني وابي الحسن البديهي وابي سعيد الرستمي وابي القاسم الزعفراني وابي العباس الضبي والقاضي الجرجاني وابي القاسم بن ابي العلاء وابي محمد الخازن وابي هاشم العلوي وابي حسن الجوهري وبني المنجم وابن بابك وابن القاشاني وابي الفضل الهمذاني واسمعيل الشاشي وابي العلاء الاسدي وابي الحسن الغويري وابي دلف الخزرجي وابي حفص الشهرزوري وابي معمر الاسمعيلي وابي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم اوذهب عني اسمه ومدحه مكاتبة الشريف الرضي الموسوي وابو اسحق الصابي وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة»

وقال : حدثني ابو عبد الله محمد بن حامد الحامدي قال عهدي بابي محمد الخازن ماثلا بين يدي الصاحب ينشده قصيدة له فيه اولها :

هذا فؤادك نهبى بين اهواء ... وذاك رأيك شورى بين آراء
هواك بين العيون النجل مقتسم ... داء لعمرك ما ابلاه من داء
لا تستقر بارض او تسير الى ... أخرى بشخص قريب عزمه ناء
يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالـ ... ـعذيب يوما ويوما بالخليصاء

وتارة تنتحي نجــدا وآونة شعب العقيق وطوراً قصر تيماء

قال فرأيت الصاحب مقبلاً عليه بمجامعه حسن الاصغاء الى انشاده مستعيداً اكثر ابياته مظهراً من الاعجاب به والاهتزاز له ما يعجب الحاضرين فلما بلغ الى قوله :

ادعى باسماء نبزا في قبائلها كأن اسماء اضحت بعض اسمائي

اطلعت شعري والقت شعرها طربا فالفــا بين اصبــاح وامساء

زحف عن دسته طربا فلما بلغ قوله في المدح :

لو ان سحبان باراه لاسحبه على خطابته اذيال فأفاء

ارى الاقاليم قد القت مقالدها اليه مستبقات اي القــاء

فساس سبعتها منــه باربعة امر ونهي وتثبيت وامضاء

كذاك توحيده الوى باربعة كفر وجبر وتشبيه وارجاء

جعل يحرك رأس مستحسن فلما انشد :

نعم تجنب لا يوم العطاء كما تجنب ابن عطاء لثغة الراء

استعاده وصفق بيديه ولما ختمها بهذه الابيات :

اطري واطرب بالاشعار انشدها احسن ببهجة اطرابي واطرائي

ومن منــائح مولانا مــدائحه لان من زنده قدحي وايرائي

نخذ اليــك ابن عبــاد محبرة لا البحتري يدانيها ولا الطائي

قال احسنت احسنت ولله انت وتناول النسخة وتشاغل باعارته نظره ثم امر له بخلعة وحملان وصلة ·

وكان من عادة الصاحب ان يقترح على شعرائه النظم في مواضيع يعينها لهم في الجد والهزل وفي ذلك من استجاشة القرائح للنهوض بالادب ما فيه كاقتراحه عليهم وصف الدار التي بناها في اصبهان ووصف الفيل الذي حصل عليه في واقعة جرجان وقد سبقت الاشارة اليهما في موضعها. ومن المواضيع الهزلية التي اقترح على شعرائه نظمها رثاء برذون ابي عيسى ابن المنجم وقد سمى الثعالبي هذه القصائد البرذونيات قال في يتيمة الدهر (١) : لما نفق برذون ابي عيسى ابن المنجم باصبهان وكان اهدى قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له اوعز الصاحب الى الندماء المقيمين في جملته ان يعزوا ابا عيسى ويرثوا اصداه فقال كل منهم قصيدة فريدة · ثم نقل قصيدة ابي القاسم الزعفراني وابي الحسن الجرجاني وابي القاسم بن ابي العلاء وابي الحسن السلامي وابي محمد الخازن وابي سعيد الرستمي وابي العباس الضبي وابي دلف الخزرجي وابي محمد محمود وابي عيسى وغيرهم ·

---

(١) ج ٣ ص ٥٥

وترى كثيراً من القصائد التي مدح بها في الجزء الثالث من يتيمة الدهر للثعالبي وهو مع ذلك لم يسلم من الهجاء قال ياقوت في معجم الادباء قال بعض الشعراء في ابن عباد يذم سجعه وخطه وعقله ·

متلقب كافي الكفاة وانما … هو في الحقيقة كافر الكفار
السجع سجع مهوس والخط خط … منقرس والعقل عقل حمار

وقال ابو العلاء الاسدى يهجوه :

اذا رأيت مسجى في مرقعة … يأوي المساجد حرا ضره بادي
فاعلم بان الفتى المسكين قد قذفت … به الخطوب الى لوم ابن عباد

وقال ابو بكر الخوارمي :

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت … كفاه يوماً ولا تذممه ان حرما
فانها خطرات من وساوسه … يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما مات الخوارزمي بلغ الصاحب وفاته فقال:

اقول لركب من خراسان رائح … امات خوارزميكم قيل لي نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره … الا لعن الرحمن من كفر النعم

الصاحب وابو حيان التوحيدي

مائة الف قصيدة مدح بها الصاحب ومئات من الشعراء [1] يطوفون بسدته مشيدين بفضله ومثلهم من شعراء الاقطار يتغنون بمديحه على بعد الديار ولكن هذا كله لم يرفع من ذكره بمقدار ما وضع من شأنه ابو حيان التوحيدي في كتابه مثالب الوزيرين «ابن العميد والصاحب ابن عباد» فان البقية الباقية من هذا الكتاب فرت جلد الصاحب وكسته سبة الدهر وجعلته هزأة واعجوبة في الرقاعة وكانت محنة الصاحب بابي حيان من اسوأ المحن [2]

قال ابو حيان : واما حديثي معه يعني مع ابن عباد فانني حين وصلت اليه قال لي ابو من ؟ قلت ابو حيان فقال بلغني انك تتأدب فقلت تأدب اهل الزمان فقال ابو حيان ينصرف اولا

---

(١) قال الصاحب مدحت بمائة الف قصيدة وقال ياقوت في معجم الادباء : مدح الصاحب ابن عباد خمسمائة شاعر من ارباب الدواوين ج ٢ ص ٣١٤

(٢) قال ياقوت في معجم الادباء : كان ابو حيان قصد ابن عباد الى الري فلم يرزق منه فرجع عنه ذاماله وكان ابو حيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام ج ٢ ص ٢٨٢

ينصرف قلت ان قبله ،ولانا لا ينصرف فلما سمع هذا تنمر وكأنه لم يعجبه واقبل على واحد الى جانبه وقال له بالفارسية سفها على ما قيل لي ثم قال الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب فقلت انا سامع مطيع . ثم اني قلت لبعض الناس في الدار مسترسلا انما توجهت من العراق الى هذا الباب وزاحمت منتجعي هذا الربيع لاتخلص من حرفة الشؤم فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة فنمى اليه هذا او بعضه او على غير وجهه فزاده تنكرا .

قال ابو حيان : طلع ابن عباد عليَّ يوماً في داره وانا قاعد في كسر ايوان اكتب شيئاً قد كان كادني به فلما ابصرته قمت قائماً فصاح بحلق مشقوق اقعد فالوراقون اخس من ان يقوموا لنا فهممت بكلام فقال لي الزعفراني الشاعر اسكت فالرجل رقيع فغلب عليَّ الضحك واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه لانه كان قد قال هذا وقد لوى شدقه وشنج انفه واmال عنقه واعترض في انتصابه وانتصب في اعتراضه وخرج في تفكك مجنون قد افلت من دير حنون والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال لان حقائقها لا تدرك الا باللحظ ولا يؤتى عليها باللفظ .

وقال ابو حيان : قال الصاحب يوماً فعْلٌ وافعالٌ قليل

وزعم النحويون انه ما جاء الا زنـد وازناد وفرخ وافراخ وفرد وافراد فقلت له انا احفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وافعال فقـال هات يا مدعي فسردت الحروف ودللت على مواضعها من الكتب ثم قلت ليس للنحوي ان يلزم مثل هذا الحكم الا بعد التبحر والسماع الواسع وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعـة والقياس مطرداً وهذا كقولهم فعيل على عشرة اوجه وقد وجدته انا يزيد على اكثر من عشرين وجهاً وما انتهيت في التتبع الى اقصاه · فقال خروجك من دعواك في فعل يدلنا على قيامك في فعيل ولكن لا نأذن لك في اقتصاصك ولا نهب آذاننا لكلامك ولم يف ما اتيت به بجرأتك في مجلسنا وتبسطك في حضرتنا ·

وقال ابو حيان قال لي ابن عباد يوماً يا ابا حيان من كناك بابي حيان قلت اجل الناس في زمانه واكرمهم في وقته قال ومن هو ويلك قلت انت قال ومتى كان ذلك قلت حين قلت يا ابا حيان من كناك اباحيان فاضرب عن هذا الحديث واخذ في غيره على كراهة ظهرت عليه · قال وقال لي يوماً آخر وهو قائم في صحن داره والجماعة قيام منهم الزعفراني وكان شيخاً كثير الفضل جيد الشعر ممتع الحديث والتميمي المعروف بسطل وكان من مصر والاقطع

وصالح الوراق وابن ثابت وغيرهم من الكتاب والندماء يا أبا حيان هل تعرف فيمن تقدم من يكنى بهذه الكنية قلت نعم من أقرب ذاك أبو حيان الدارمي حدثنا أبو بكر محمد بن محمد القاضي الدقاق قال حدثنا ابن الانباري قال حدثنا ابي قال حدثنا ابن ناصح قال دخل ابو الهذيل العلاف على الواثق فقال له الواثق لمن تعرف هذا الشعر :

سباك من هاشم سليل   ليس الى وصله سبيل
من يتعاط الصفات فيه   فالقول في وصفه فضول
للحسن في وجهه هلال   لاعين الخلق لا يزول
وطرة ما يزال فيها   لنور بدر الدجى مقيل
مااختال في صحن قصراوس   الا ليسجى له قتيل
فان يقف فالعيون نصب   وان تولى فهن حول

فقال ابو الهذيل يا أمير المؤمنين هذا لرجل من اهل البصرة يعرف بابي حيان الدارمي وكان يقول با مامة المفضول وله من كلمة يقول فيها :

افضله والله قدمه على   صحابته بعد النبي المكرم
بلا بغضة والله مني لغيره   ولكنه اولاهم بالتقدم

وجماعة من اصحابنـــا قالوا أنشد ابو قلابة عبد الله بن محمد الرقاشي لابي حيان البصري :

يا صاحبي دعا الملام واقصرا   ترك الهوى يا صاحبي خساره
كم لمت قلبي كي يفيق فقال لي   لجت بين مــالمــا كثاره
الا افيق ولا افتر لحظـــة   ان انت لم تعشق فانت حجاره
الحب اول ما يكون بنظرة   وكذا الحريق بداوءه بشراره
يا من احب ولا اسمي باسمها   اياك اعني فاسمعي يا جاره

فلما وفيت الشعر ورويت الاســناد وريقي بليل ولساني طلق ووجهي متهلل وقد تكلفت هذا وانا في بقية من غرب الشباب وبعض ريعانه وملأت الدار صياحا بالرواية والقافية فحين انتهيت انكرت طرفه وعلمت سوء موقع ما رويت عنده . قال ومن تعرف ايضاً ؟ قلت روى الصولي فيما حدثنا عنه المرزباني ان معاوية لما احتضر انشد يزيد عند رأسه متمثلا :

لو ان حيا نجا لفات ابو   حيان لا عاجز ولا وكل
الحول القلب الاريب وهل   بدفع صرف المنية الحيـــل

قال الصولي وهذا كان من المعمرين المغفلين وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا اريحية بل على اكفهرار وجه وزبو

طرف وقلة تقبل . وجرت اشياء اخر كان عقباها اني فارقت بابه سنة ٣٧٠ راجعاً الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ولا ما قيمتــه درهم واحد احمل هذا على ما اردت ولما نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به واحفظني عليه وجعلني من جميع حاشيته فرداً اخذت املأ في ذلك بصدق القول عنه وسوء الثناء عليه والبادئ اظلم وللامور اسباب وللاسباب اسرار والغيب لا يطلع عليه ولا قارع لبابه .

وقال ابو حيان : قال لي الصاحب يوماً وهو يحدث عن رجل اعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله «ولا بد من شيء يعين على الدهر» ثم قال : سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم . قلت انا احفظ ذاك ، فنظر بغضب فقال : ما هو؟ قلت نسيت ، فقال ما اسرع ذكرك من نسيانك ، قلت ذكرته والحال سليمة فلما استحال عن السلامة نسيت ، قال وما حيلولتها ؟ قلت نظر الصاحب بغضب فوجب في حسن الادب الا يقال ما يثير الغضب قال ومن تكون حتى نغضب عليك دع هذا وهات . قلت قول الشاعر :

الام على اخذ القليل وانما اصادف اقواماً أقل من الذر
فان انا لم آخذ قليلاً حرمته ولا بد من شيء يعين على الدهر

فسكت .

قال ابو حيان عند قربه من فراغ كتابه في ثلب الوزيرين وقد حكى عن ابن عباد حكايات واسندها الى من اخبره بها عنه ثم قال : فما ذنبي اكرمك الله اذا سألت عنه مشايخ الوقت واعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان على اني قد سترت شيئاً كثيراً من مخازيه اما هرباً من الاطالة أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبث الفضائح وذكر مايسمج مسموعه ويكره التحدث به هذا سوى ما فاتني من حديثه فاني فارقته سنة ٣٧٠ . وما ذنبي ان ذكرت عنه ماجرعنيه من مرارة الخيبة بعد الامل وحملني عليه من الاخفاق بعد الطمع مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل والظن الحسن حتى كأني خصصت بخساسته وحدي او وجب ان اعامل به دون غيري . قدم الي نجاح الخادم وكان ينظر في خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان فقلت بعد ارتياع : هذا طويل ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقراً كالغرر وشذوراً

كالدرر تدور في المجالس كالشمامات والدستبويات لو رقي بها مجنون لأفاق او نفث على ذي عاهة لبرئ لاتمل ولا تستغث ولا تعاب ولا تسترك . فرفع ذلك اليه وانا لا أعلم فقال طعن في رسائلي وعابها ورغب عن نسخها وازرى بها والله لينكرن مني ما عرف وليعرفن حظه اذا انصرف ؛ حتى كأني طعنت في القرآن أو رميت الكعبة بخرق الحيض أو عقرت ناقة صالح او سلحت في بئر زمزم أو قلت كان النظام مأبوناً أو مات أبو هاشم في بيت خمار أو كان عباد معلم صبيان . وماذنبي ياقوم اذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا الذي يستحسن هذا الكلب حتى أعذره في لومي على الامتناع اينسخ انسان هذا القدر وهو يرجو بعدها أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه ببدنه . ثم ما ذنبي اذا قال لي من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف الذي تكتب به الي في الوقت بعد الوقت ؟ فقلت وكيف لا يكون كما وصف وأنا أقطف ثمار رسائله واستقي من قليب علمه واشيم بارقة أدبه وارد ساحل بحره واستو كف قطر مزنه . فيقول كذبت وفجرت لا أم لك ومن أين في كلامي الكدية والشحذ والتضرع والاسترحام كلامي في السماء وكلامك في السماد . هذا أيدك الله

وان كان دليلاً على سوء جدي فانه دليل أيضاً على انخلاعه وخرقه وتسرعه ولؤمه ·

بل ما ذنبي اذا قال لي هل وصلت الى ابن العميد أبي الفتح فاقول نعم رأيته وحضرت مجلسه وشاهدت ما جرى له و كان من حديثه فيما مدح به كذا و كذا وفيما تقدم منه كذا و كذا وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا و كذا ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا و كذا ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا و كذا فينزوي وجهه و ينكر حديثه و ينجذب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له ثم يقول اعلم انك انما انتجعته من العراق فاقرأ عليّ رسالتك التي توسلت اليه بها واسهبت مقرظاً له فيها فاتمانع فيأمر و يشدد فاقرأها فيتغير و يذهل · ثم يقال لي من بعد جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير واثنيت عليه وجعلته سيد الناس ·

وقال ابو حيان : وكان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول واجاد اللفظ و كان الصواب غالباً عليه وله رفق في سرد حديث ونيقة في رواية له وله شمائل مخلوطة بالدماثة بين الاشارة والعبارة رهذا شيء عام في البغداديين و كالخاص في غيرهم ·

حدثت ليلة بحديث فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاده ثم قيل لي بعده انه كان يقول قاتل الله أبا حيان فانه نكد وانه واكره ان اروي ذمي بقلمي وكان ذلك كله حسداً وغيظاً بحتاً ٠

وحكى ابو حيان قال : حضرت مائدة الصاحب ابن عباد فقدمت مضيرة فامعنت فيها فقال لي يا أبا حيان انها تضر بالمشايخ فقلت ان رأى الصاحب ان يدع التطبب على طعامه فعل فكأني القمته حجراً وخجل واستحيا ولم ينطق الى ان فرغنا ٠

الصاحب والهاشمي الاعمى

كان الصاحب في صغره اذا اراد المضي الى المسجد ليقرأ أعطته أمه ديناراً ودرهماً في كل يوم وقالت له تصدق بهذا على اول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه الى ان كبر فصار يقول للفراش كل ليلة اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهماً لئلا ننساه فبقي على هذا مدة ثم ان الفراش نسي ليلة من الليالي ان يطرح له الدرهم والدينار فانتبه وصلى وقلب المطرح ليأخذ الدرهم والدينار ففقدهما فتطير من ذلك وظن انه لقرب اجله فقال للفراشين خذوا كل ما هنا من الفراش واعطوه لأول فقير تلقونه حتى

يكون كفارة لتأخير هذا فلقوا اعمى هاشمياً على يد امرأة فقالوا تقبل هذا فقال ما هو فقالوا مطرح ديباج ومخاد ديباج فاغمي عليه فاعلموا الصاحب بامره فاحضره ورش عليه ماء فلما أفاق سأله فقال اسألوا هذه المرأة ان لم تصدقوني فقالوا له اشرح فقال انا رجل شريف لي ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ولي سنتان آخذ القدر الذي يفضل عن قوتنا اشتري لها به جهازاً فلما كان البارحة قالت امها اشتهيت مطرح ديباج ومخاد ديباج فقلت من أين لي ذلك وجرى بيني وبينها خصومة الى ان سألتها ان تأخذ بيدي وتخرجني حتى امضي على وجهي . فلما قال لي هؤلاء هذا الكلام حق لي ان يغشى عليّ . فقال الصاحب لا يكون الديباج الا مع ما يليق به ثم اشترى له جهازاً يليق بذلك المطرح واحضر زوج الصبية ودفع اليه بضاعة سنية[(١)]

هو ودينار المجوسي

قال ياقوت : حدث الوزير ابو العلاء بن حسولي قال كان دينار المجوسي صدرا في ديوان الري وكان مدبرا مدرهما

---

(١) بغية الوعاة للسيوطي ص ١٩٦

حمولا فكتب رجل الى الصاحب :

لم لا يفرق في ديوان عسكره كافي كفاة الورى دينار دينار
فان ايسر مافي قطع شأفته تطهير ديوانه من عابدي النار

فقبض عليه وصادره واستوفى منه مالاً عظيماً والسبب في ذلك البيتان ·

هو ومتشاعر

انتحل بعض المتشاعرين بحضرة الصاحب شعراً له وبلغه ذلك فقال ابلغوه عني :

سرقت شعري وغيري يضام فيه ويخدع
فسوف اجزيك صفعاً يكد رأساً واخدع
فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع

فاتخذ الليل جملا وهرب من الري

علمه وادبه

اراد الصاحب ان يسير على سنن استاذه ابن العميد حذو القذة بالقذة في السياسة والعلم والادب فكان له ما اراد وفوق ما اراد في العلوم الشرعية واللسانية واخطأه التوفيق في علوم الحكمة كما انه قصر عن شأو ابن العميد في المواهب الفطرية كالرفق والكياسة وبعد النظر في امور السياسة ·

فاق الصاحب استاذه ابن العميد في العلوم الشرعية فقد كان طويل الباع في الحديث فانه سمع الحديث واملى · قال السمعاني في كتاب الانساب : سمع الصاحب الاحاديث من الاصبهانيين والبغداديين والرازيين وحدث وكان يحث على طلب الحديث وكتابته ثم روى عن ابن مردويه انه سمع الصاحب يقول من لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الاسلام ·

وقال ابو الحسن علي بن محمد الطبري الكيا : لما عزم الصاحب ابن عباد على الاملاء وهو وزير خرج يوماً متطلساً متحنكاً بزي اهل العلم فقال قد علمتم قدمي في العلم فاقروا له بذلك فقال وانا متلبس بهذا الامر وجميع ما انفقته من صغري الى وقتي هذا من

مال ابي وجدي ومع هذا فلا اخلو من تبعات اشهد الله واشهدكم اني تائب الى الله من ذنب اذنبته . واتخذ لنفسه بيتاً وسماه بيت التوبة ولبث اسبوعاً على ذلك ثم اخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ثم خرج فقعد للاملاء وحضر الخلق الكثير وكان المستملي الواحد ينضاف اليه ستة كل يبلغ صاحبه فكتب الناس حتى القاضي عبد الجبار .

وكان الصاحب يقول شاركت الطبراني في اسناده ويقال انه نال من البخاري وقال هو حشوي لا يعول عليه . وكان يقتبس من الحديث في شعره كقوله :

ومهفهف يغني عن القمر قمر الفؤاد بفاتن النظر
خالسته تفاح وجنته من غير ابقاء ولا حذر
فاخافني قوم فقلت لهم (لا قطع في ثمر ولا كثر[1])

وقوله :

قال لي ان رقيبي سيء الخلق فداره
قلت دعني وجهك (الجنـ ـة حفت بالمكاره)

---

(١) الكثر بفتحتين جُمَّار النخل وهو شحمه الذي في وسط النخلة . النهاية لابن الأثير .

وقوله :

اقول وقد رأيت له سحابا   من الهجران مقبلة الينـا
وقد سحت عزاليها بهطل   (حوالينا الصدود ولا علينا)

واهدي اليه هدية اهدى منها الى ابي سعيد الشبيبي و كتب معها رقعة مصدرة بهذا البيت :

رويت في السنة المشهورة البركة   ان الهدية في الاخوان مشتركة

و كان عالماً بالتوحيـد والاصول والف فيهما ، من ذلك كتاب مختصر اسماء الله تعالى وصفاته و كتاب نهج السبيل في الاصول و كتاب الامـامة في تفضيل علي بن ابي طـالب وتصحيح امامة من تقدمه و كتاب الزيدية .

و كان ذا بصر بالخلاف بين الفرق والائمة قال ابن العماد في شذرات الذهب: قال الصاحب في وصف الائمة الثلاثة المتعاصرين الباقلاني نار محرق وابن فورك صل مطرق والاسفرائيني بحر مغرق قال ابن عساكر كأن روح القدس نفث في روعه بحقيقة حالهم .

و كذلك فقد كانت للصاحب مشاركة في التاريخ ولا بدع فالتاريخ من اعظم عناصر الادب وله فيه مؤلفات ذكرها ياقوت في معجم الادباء وهي: كتاب المعارف في التاريخ و كتاب

الوزراء وكتاب اخبار ابي العيناء وكتاب تاريخ الملك واختلاف الدول وكتاب الزيدين ٠

اما علمه باللغة فربما كان اجل علومه واوسعها فقد الف باللغة كتاب المحيط في عشرة مجلدات وكتاب جوهرة الجمهرة ٠ وهو معدود من الثقات في رواية اللغة وقد جعله الثعالبي احد ائمة اللغة الذين اعتمد عليهم في كتابه فقه اللغة امثال الليث والخليل بن احمد وسيبويه وخلف الاحمر وثعلب والاصمعي وابن الكلبي وابن دريد واشباههم وروى عنه في ذلك الكتاب فصل ترتيب الشرب وباب الحجارة [١] وعده الانباري من علماء اللغة فافرد له ترجمة في كتابه طبقات الادباء النحاة وكذلك السيوطي ترجم له في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٠

ولقد زين له علمه بغريب اللغة ان يغرب في بعض احاديثه اغرابا يدل على شدة التنطع والتقعر قال ابو حيان التوحيدي قال الخليلي سمعت الصاحب ابن عباد يقول للتميمي الشاعر كيف تقول الشعر وان قلت كيف تجيد وان اجدت فكيف تغزر وان غزرت فكيف تروم غاية وانت لا تعرف ما الزهزبق.

---

(١) ص ١٦٨ و ٣٠٥ من فقه اللغة

وما الهبلع وما العثلط وما الجلعلع وما القهقب وما القهبلس وما الخيسوب وما الخزعبلة وما القذعملة وما العرموط وما الجرقاس وما اللؤومس وما النعثل وما الطريال وما الفرق بين العرم والردم والحدم والحذم والقضم والخضم والنضح والرضح والفصم والقصم والقصع والفصع وما العبنقس وما العكنفس وما الوكال والرومل وما الخيتعور واليستعور وما الستعون وما الجردون وما الحلزون وما القفندر وما الجمليل قال الشاعر :

جاءت بخف وحنين ورحل   جاءت تمشي وهي قدام الابل

مشي الجمليلة بالخرق النقل

ورأيت بعض الجهال يصحف و يقول « وحنين وزجل » قال ابو حيان قلت للخليلي من عني بهذا قال ابن فارس معلم ابن العميد ابي الفتح قال الخليلي فهذا الضرب من الكلام يجب ان يفتخر بمثله و يتدفق به ؟ انك يا ابا حيان لو رأيته يمشي وهو يهذي بهذا وشبهه و يتفيهق و يلوي شدقيه عليه و يقذف بالبصاق على اهل المجلس لحمدت الله على العافية مما يلي هذا الرجل به . و بعد فما بين الشاعر وهذا الضرب الشاعر يطلب لفظاً حراً ومعنى بديعاً ونظماً حلوا وكلمة رشيقة ومثلاً سهلاً ووزناً مقبولا .

على ان الصاحب لم يكن يستعمل مثل هذا في رسائله أو في شعره بل كان مشهوراً باختيار اللفظ المأنوس السهل على طريقة ابن العميد فاذا صحت رواية ابي حيان كانت على سبيل ادلال الصاحب بمعرفة غريب اللغة ووحشيها ٠

وكان الصاحب ذا قدم راسخة في علم العروض وقد الف فيه كتابين الاقناع في العروض وكتاب نقض العروض ٠

هذا ومع انه كان مأخوذاً بعلوم العرب وأدبهم ومعروفاً بانحرافه عن الفلسفة والعلوم الدخيلة فان آثاره تدل على ان في ثقافته عنصراً من العلوم الدخيلة التي ترجمت الى العربية فله رسالة في الطب يذكر فيها آراء جالينوس وبقراط ويستعمل كلمة الكيموسات كما أن له رسالة ثانية استعمل فيها كلمة المالنخوليا ومن شعره ما كتب به الى ابي الحسين الطبيب مداعباً

انا دعوناك على انبساط — والجوع قد أثر في الاخلاط
فان عسى ملت الى التباطي — صفعت بالنعل قفا بقراط

وكذلك فقد نوه بحكمة ارسطاطاليس وافلاطون في رسالته الكشف عن مساوئ شعر المتنبي واستعمل بها كلمة ارثماطيقي وموسيقي ٠ قال يتهكم بالمتنبي ٠ ٠ ٠ «واحتذى هذا

الفاضل على مثالهم وطرقهم فقال :

وانت ابو الهيجا بن حمدان يا ابنه　　تشابه مولود كريم ووالد

وحمدان حمدون وحمدان حارث　　وحارث لقمان ولقمان راشد

وهذه من الحكمة التي ذخرها ارسطاطاليس وافلاطن لهذا الخلف الصالح وليس على حسن الاستنباط قياس ·

وقال : ومن عيون قصائده التي تحير الافهام وتفوت الاوهام وتجمع من الحساب مالا يدرك بالارتماطيق و بالاعداد الموضوعة للموسيقى :

احاد ام سداد في احاد　　لييلتنا المنوطة بالتناد »

الصاحب في علمه وطريقة تفكيره اقرب الى اهل الظاهر مع انه معتزلي في الاصول لذلك فهو شديد على من خالفه في الرأي في مسائل الدين والأدب ·والغريب في امره انه وهو الأديب الكاتب الشاعر — وعمود فن الأديب الذوق — ينكر على المتصوفة ذوقهم و يعتبر كلامهم مفسدة للشعر · قال ينتقد المتنبي : « وكنت اعجب من كلام ابي يزيد البسطامي في المعرفة والفاظه المعقدة وكلماته المبهمة حتى سمعت قول شاعرنا في صفة الفرس : « سبوح لها منها عليها شواهد » ·

وقال : ومن شعره الذي يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة في طبعه بيت رقية العقرب اقرب الى الافهام منه وهو :

نحن من ضايق الزمان له فيـ ـك وخانته قربك الايام

فان قوله « له فيك » لو وقع في عبارات الجنيد والشبلي لتنازعته المتصوفة دهراً بعيداً ٠ »

وكأن هذا الرأي اصبح صواباً بعد الصاحب حتى قال الثعالبي في يتيمة الدهر : ومن معايب شعر ابي الطيب ومقابحه امتثال الفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة ٠ هذا والصاحب فارسي النسب والفرس شعب لقي التصوف في نفوسهم مرعى خصيباً فنبغ منهم اكبر شعراء المتصوفة في الاسلام كجلال الدين الرومي والحافظ الشيرازي ٠

٠ ٠ ٠ ٠

الزمن الذي اظل الصاحب والبيئة التي عاش فيها والفطرة التي فطر عليها ذللت له اسباب التعمق في العلم والادب

قال في مقدمة رسالته الكشف عن مساوئ شعر المتنبي :

« وها انا منذ عشرين سنة اجالس الشعراء واكاثر الادباء

وأبحاث الفضلاء ، وعشرين أخرى آخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد وأكتب عن أصحاب احمد بن يحيى ثعلب فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته وينقده نقد جهابذته غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل ابن العميد »

واجتمع عند الصاحب من الكتب ما لم يجتمع عند غيره فقد كانت خزانة كتبه فريدة وكان يتولاها ابو محمد الخازن الشاعر[١] قال ياقوت في معجم الأدباء[٢] : كان صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني قد ارسل الى الصاحب في السر يستدعيه الى حضرته ويرغبه في خدمته وبذل البذول السنية فكان من جملة اعتذاره ان قال كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدري وشاع بين الانام ذكري ثم كيف بحمل اموالي مع كثرة اثقالي وعندي من كتب العلم خاصة ما يحمل على اربعمائة جمل او اكثر .

قال ابو الحسن البيهقي وانا اقول بيت الكتب الذي بالري على ذلك دليل بعد ما احرقه السلطان محمد بن سبكتكين فاني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٤٨ (٢) ج ٢ ص ٣١٥

الكتب عشر مجلدات . فان السلطان محموداً لما ورد الى الري قيل له ان هذه الكتب كتب الروافض واهل البدع فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وامر بحرقه .

وكان الصاحب اذا سافر استصحب معه من كتبه ما يحمل على ثلاثين جملاً فلما وصل اليه كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني استغنى به عنها .

وكان اهل العلم والادب يتوسلون الى الصاحب بتقديم مؤلفاتهم اليه ويعتبرون قبوله اياها ورضاه عنها شهادة بجودتها قال ابن فارس في مقدمة كتابه الصاحبي : « هذا الكتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها وانما عنونته بهذا الاسم لاني لما الفته اودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة عمر الله عراص العلم والادب والخير والعدل بطول عمره تجملا بذلك وتحسناً اذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وادب مرضياً مقبولاً وما يرذله او ينفيه منفياً مرذولاً ولان احسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومفاد منه

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في خطبة كتاب تهذيب التاريخ : « وهذا كتاب قصدت به غرضي دين ود

اما الدين . . . واما غرض الدنيا فان اقيم بفناء الصاحب الجليل ادام الله بهاء العلم بدوام ايامه من يخلفني في تجديد ذكري بحضرته وتكرير اسمي في مجلسه ومن ينوب عني في مزاحمة خدمته على الاعتراف بحق نعمته وعلمت اني لا استخلف من هو امس به رحماً واقرب منه نسباً وارفع عنده موضعاً والطف منه موقعاً واخص به مدخلاً ومخرجاً واشرف بحضرته مقاماً وموقفاً من العلم الذي يزكو عنده غراساً فيضعف ريعاً ويحلو طعماً ويطيب عرفاً ويحسن اسماً فاخترت لذلك هذا الكتاب ثقة بوجاهته وعلما بقرب منزلته وكيف لا يكون عنده وجيها مكينا ومقبولا قريبا وانما هو نتاج تهذيبه وثمرة تقويمه وجناء تمثيله وربيع تحريكه فلولا عنايته لما صدقت النية ولولا ارشاده لما نفذت الفطنة ولولا معونته لما استجمعت الآلة وما يعد به عن ايثار العلوم وتعظيمها وعن تقديمها وتقريبها وهو الذي نصبه الله لها مثالاً واقامه عليها مناراً وجعله لها سنداً ولاحيائها سبباً »

وما ظنك بمن يقتبس ابن فارس والقاضي الجرجاني من علمه وادبه والاول امام في اللغة والادب والثاني من ائمة الدين والادب وهو من ابعد الناس عن المحاباة وهو القائل :

ولم اقض حق العلم ان كان كلما   بدا طمع صيرته لي سلما

وابو بكر الخوارزمي على جلالة قدره وسعة علمه واعتداده بنفسه يعترف بالاخذ عنه بقوله :

واني و الزميك بالشعر بعدما   تعلمته منك الندى والفواضلا

كملزم رب الدار اجرة داره   ومثلك أعطى من طار بقين نائلا

كتبه

الصاحب من اكثر الوزراء تصانيف ولقد فاق استاذه ابن العميد من حيث عدد المؤلفات وهو لم يقتصر على فن بل الف في عدة انواع كالدين والتاريخ واللغة والادب والاخبار ولو سلمت كتبه من الضياع لكانت مجموعة قيمة تضاف الى المكتبة العربية ولكن القسم الاعظم منها مفقود او لا يعلم مكان وجوده وما بقي لا يزال مخطوطاً في دور كتب الشرق والغرب ولم يطبع منها الا رسالة واحدة سيأتي الكلام عليها وفصول من رسائله ومقطعات من شعره مبثوثة في كتب الادب والتراجم على سبيل الاختيار والتمثل والاستشهاد.

وهذه اسماء كتبه :

١ — كتاب الوقف والابتداء وهو من اوائل مصنفاته ولعله اولها قال الانباري في طبقات الادباء : يحكى عن الصاحب انه لما صنف كتاب الوقف والابتداء كان في عنفوان شبابه فارسل اليه ابو بكر ابن الانباري وقال له انما صنفت كتاب الوقف والابتداء بعد ان نظرت في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك فقال الصاحب للرسول : قل للشيخ نظرت في النيف وسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك ايضاً ٠

٢ — المحيط في اللغة وهو معجم لغوى ذكر ياقوت في معجم الادباء انه في عشر مجلدات وذكر صاحب كشف الظنون انه في سبعة مجلدات وانه كثير اللفظ قليل الشواهد ٠ وفي فهرس دار الكتب المصرية ان الجزء الثالث منـه موجود فيها وهو مخطوط مخروم واول مافيه من حرف الفاء وينتهي الى اول حرف الزاي وللمحيط منزلة عظيمة لانه من اقـدم المعاجم اللغوية ٠ وهذا مثال منه مأخوذ عن الجزء المحفوظ في دار الكتب المصرية ومنه نتبين طريقـة المؤلف في الترتيب :

حرف الذال

باب المضاعف

الذال والراء

ذَرَّ الذَّرُّ صغار النمل والواحدة ذَرَّةٌ ومصدر ذررت الملح على الخبز والدواء اليابس في العين واسم ذلك الدواء الذَّرور والذُّرارة ما تناثر من الشيءِ الذي تذره والذَّريرة فتات قصب من قصب الطيب والذُّرِّيَّة فُعْلِيَّة من ذررت لان الله ذرَّهم في الارض ذرًّا والجميع الذراري ويقال ذُرِّية وقريءَ ذرية من حملنا مع نوح بتخفيف الراء وذرّية وذرّي السيف فرنده والذَّرِّي السيف الكثير الماء والذَّرور ذُرور الشمس وهو اول طلوعها وسقوط ضوئها على الارض وذرَّ قرن الشمس طلع ورجل ذَرْذارٌ وثرثار في كثرة الكلام بمعنى وذارَّت الابل عن الماء ذراراً ومذارَّة اذا ابت ان تشربه واذرورى بطنه وهو ان يمتد صفاقه وتنحدر سرته ٠

رذَّ الرَّذاذُ مطر كالغبار واحدتها رذاذة ويوم مرذٌّ وأرذَّتِ السماء تُرِذُّ إرذاذاً وأرذَّتِ العين بمائها اي اسالته وكذلك السقاء ٠

الذال واللام

ذَلّ الذِلّ مصدر الذلول ذلّ يذلّ ذِلاً وهو المنقاد
لك من الدواب وذِلّ الطريق ما وطيء منه · والكرم اذا
دليت عناقيده قد ذُلِّل تذليــلا وكذلك اذا سويت عذوقه ·
والذُّلّ والذِلّة مصدر الذليل ذلّ يذِلّ والذُلاّن الذلايل
والقوم ذِلّة وأذِلّة وأذلاء ورجل ذَلولِيّ حسن الخلق دميث
وجمعه ذلوليون · والذِلذِل اسفل القميص والقبا ونحوه
وهو الذُلذل ايضاً والجميع الذلاذل · وجاءت الامور على
أذلالها اي على وجوهها ومجاريها · ودعه على أذلاله اي على
حاله واطو الثوب على أذلاله اي على مجره اي غره وأذلال
من النــاس وذلاذل منهم وذُلَيذِلات وذُلذلات اي اواخر
وقليل من النــاس · والتذاذُل الاضطراب والاسترخاء
واذلولى اسرع ·

لذ اللذ واللذيذ في الشــراب يلذُّه لذاذة واللذات جمع
اللذة واللذ النوم والأُلِذّة الذين يأخذون لذتهم واللذلاذ
الخفيف السريع ·

الذال والنون

ذنّ ذَنّ الفحل يَذِنُّ ذَنيناً اذا سال من انفه ماء خاثر ورجل أذَنُّ يسيل انفه وهو ذُنان الانف وذَنينه والذُنانِيّ الرجل الذي يسيل منه الذُنان والذنّاء المرأة التي لا ينقطع حيضها ، وجرح لا يزال يَذِنُّ ، والذُؤنون نبات ينبت أمثال العراجين من نبات الفطر الواحدة ذؤنونة ، وخرج القوم يَتَذأَنون اي يأخذون الذانين ، والذُنانة الحاجة والطلبة ما ذُنانتك وعليه ذنانات من دين اي ذُبابات وذَنينة من خير وذُنانة وذانّة اي بقية ، وقطع الله ذانّ فلان وذانته اى ماذنّ منه وسال من عرقه او من ... والمُذانّة العود في تجز قضاء الحاجة والتردد فيه وقد ذاننته وذنّ في الامر يَذِن والذناذن اسفل القميص كالذلاذل واحدها ذنذن

٣ - ديوان رسائل الصاحب : ذكر ابو حيان التوحيدي انه كلف ان ينسخ من رسائل الصاحب ثلاثين مجلدة وذكر ياقوت في معجم الادباء ان ديوان رسائل الصاحب عشر مجلدات ومهابكن.

عدد المجلدات فان هذا الديوان مفقود ولكن المختار من هذا الديوان الذي سيأتي الكلام عليه يعطينا صورة مصغرة عنه .

٤ — المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد : لم يعلم جامعه وهو صورة مصغرة ولكنها تامة عن ديوان رسائل الصاحب لان جامعه اختار من جميع ابواب الديوان ولم يترك منها بابا كما ذكر في المقدمة. منه نسخة في دار الكتب المصرية مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة مخطوطة بخط ابي الحسن علي بن احمد ابن زكريا المعروف بابن الشصاص البغدادي فرغ من كتابتها بهمذان في شهر رمضان سنة ٥٥٧ وهي محفوظة بالمكتبة الاهلية في باريس وعدد صفحاتها ٢٢٩ صفحة في كل صفحة ٢٣ سطراً وهي على حسن خطها لا تخلو من بعض الاغلاط ونحن ننقل هنا مقدمة الكتاب لانها بمثابة فهرس له وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرت اطال الله بقاءك شديد حرصك على تحفظ بعض رسائل الصاحب الجليل كافي الكفاة رضي الله عنه واحتياجك الى من تستعين به على جمع ذلك مبوبا مختاراً الاشف فالاشف

منه فوعدتك القيام لك به وجردت له عنايتي وخرجت من كل باب من ابواب ديوان رسائله العشرين عشر رسالات ليخف حجم هذا المجموع ولا يعتاص تحفظه وقد رجوت ان يقع ذلك منك موضع الوفاق والله ولي التوفيق والارشاد ·

فالباب الاول في البشائر والفتوح ·

والباب الثاني في العهود ·

والباب الثالث في الامان والايمان والموافقات والمناشير ·

والباب الرابع في امر الحجيج والمصالح والثغور ·

والباب الخامس في الاستعطاف وما يجانسه ·

والباب السادس في اصلاح ذات البين وتهجين العقوق ·

والباب السابع في المدح والتعظيم ·

والباب الثامن في الذم والتهجين وما يجري مجراه ·

والباب التاسع في التهاني ·

والباب العاشر في التعازي ·

والباب الحادي عشر في الاخوانيات والمداعبات ·

والباب الثاني عشر في التشكر ·

والباب الثالث عشر في الاستزارة والتقريع ·

والباب الرابع عشر في التنصل والاسترضاء ·

والباب الخامس عشر في الشفاعات ·

والباب السادس عشر في توصية العمال بتجلب المال واظهار العفاف وحسن السياسة ·

والباب السابع عشر في الادب والمواعظ ·

والباب الثامن عشر في فصول وغرر وتوقيعات ودرر ·

والباب التاسع عشر في الفوارد وهي الكتب النادرة ·

والباب العشرون في الشوارد والكتب المختلفة المعاني ·

وستطلع على فصول منه في آخر هذه الرسالة · ومن اماني ان انشره برمته على حدة

٥ — كتاب الكافي في الرسائل : وهو غير ديوان رسائله ويغلب على الظن انه في اصول الكتابة ورسومها وفنون الرسائل ولعله الكتاب الذي عرّفه صاحب كشف الظنون بقوله : رسالة ابن عباد في فنون الكتابة والرسائل رتبها على خمسة عشر باباً · وقد وهم المرحوم جرجي زيدان فجعل كتاب الكافي وديوان رسائل الصاحب كتابا واحداً فقال : وللصاحب في

الرسائل كتاب الكافي منه منتخبات خطية في مكتبة باريس [١] مع ان تلك المنتخبات هي مختار من ديوان رسائله كما ذكر من قبل لا من كتاب الكافي .

٦ — الكشف عن مساوئ شعر المتنبي : الباعث للصاحب على تأليف هذه الرسالة هو ان المتنبي لما زار ابن العميد في ارجان ومدحه طمع الصاحب في ان يمدحه المتنبي ايضاً فكتب اليه يستدعيه الى اصبهان ويبذل له مشاطرته جميع ماله فلم يجبه المتنبي على كتابه كبراً وتيهاً لان الصاحب كان في عنفوان شبابه ولم يستوزر بعد . فاستاء الصاحب والف تلك الرسالة وتتبع فيها سقطات المتنبي وزلاته وفيها كثير من الغمز واللمز والتهكم والتحامل واسمها ينبئ عن غاية مؤلفها فانه لم يعمد الى الحكم في شعر المتنبي جيده ورديئه بل عمد الى اظهار السخيف دون غيره بطريقة تنم على التشفي . والمآخذ التي اخذها الصاحب على المتنبي واردة في اكثر الاحيان ولكنها لا تعدو انتقاد الالفاظ والصنعة البديعية والنظرات القصيرة في استكناه روح الشاعر

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٧٥

على ان الصاحب كان يأخذ من معاني المتنبي في شعره ونثره كقوله :

لبسن برود الوشي لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

فانه اغار فيه على قول المتنبي :

لبسن الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا

وقوله من رسالة له : « وقد اثنى عليه ثناء لسان الزهر على راحة المطر » وهو من قول ابي الطيب :

وذكي رائحة الرياض كلامها تبغي الثناء على الحيا فيفوح

وغير ذلك كثير سيأتي في موضعه . ولما الف الصاحب هذه الرسالة الف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه تجود فيه كثيراً . ورسالة الكشف عن مساوئ شعر المتنبي طبعتها مكتبة القدسي في ست وعشرين صفحة وهي الاثر الوحيد المطبوع على حدة من آثار الصاحب .

٧ – الاقناع في العروض : منه نسخة مخطوطة في مكتبة باريس الاهلية مكتوبة سنة ٥٥٩ ونسخة اخرى في دار الكتب المصرية عرفها فهرسها بما يلي : « اوله بعد البسملة :

العروض ميزان الشعر به يعرف مكسوره من موزونه الخ ضمن مجموعة مخطوطة بخط قديم» . واليك مثالا منه مأخوذا عن تلك النسخة:

الطويل له عروض واحدة وثلاثة اضرب واصله فعولن مفاعيلن اربع مرات البيت الاول عروضه مقبوضة والمقبوض ما سقط خامسه الساكن كان اصله مفاعيلن فحذفت ياؤه فبقي مفاعلن وضربه سالم صحيح والسالم ما سلم من الزحاف والصحيح ما صح من الضروب وهو :

ابا من	ذر نكانت	غرورن	صحيفتي (١)
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

ولم اع	طهبطو	عمالي	ولا عرضي
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن

البيت الثاني عروضه مقبوضة وضربه مقبوض وهو :

ستبدي	لك الايا	ما كن	تجاهلا (٢)
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

(١) ابامنذر كانت غروراً صحيفتي   ولم اعطه بالطوع مالي ولاعرضي

(٢) ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وبـأتي	كبـالاخبا	رمن لم	تزودي
فعـولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

البيت الثالث عروضه مقبوضة وضربه محذوف والمحـذوف ما سقط من آخره سبب خفيف كان اصله مفاعيلن فحذف من آخره لن فبقي مفاعي فنقل الى فعولن وهو :

اقيموا	بنينعـما	نعمنـا	صدور كم (١)
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن
والـلا	تقيموا صا	غرين	رؤوسـا
فعـولن	مفاعيلن	فعولن	فعولـن

زحافه يجوز في كل فعولن الا التي في ضرب البيت الثالث وهو ستبدي لك الايام ان تسقط نونه ويبقى فعول ويسمى مقبوضاً ويجوز في كل مفاعيلن الا التي في الضرب الاول ان تسقط ياؤه ويبقى مفاعلن ويسمى مقبوضاً وان تسقط نونه ويبقى مفاعيل ويسمى مكفوفاً والمكفوف ما سقط سابعه الساكن وبين ياء مفاعيلن ونونها معاقبة والمعاقبة ان يجوز ثبوت الحرفين معاً ولا يجوز سقوطهما معاً · ويجوز في فعولن في ابتداء ابيات الطويل

(١) اقيموا بني نعمان عنا صدوركم والا تقيموا صاغرين رؤوسا

الخرم وهو حذف اول متحرك في الوتد المجموع في اول البيت فاذا خرم فعولن بقي عولن فنقل الى فعلن ويسمى اثلم فان خرم وقد صار فعول بقي عول فنقل الى فعل وسمى اثرم واذا سلم الجزء من الخرم سمي موفوراً [و] الموفور في فعول خاصة ٠

بيت المقبوض

اتطلب من اسود بيشة دونه   ابو مطر وعامر وابو سعد

نقطيعه :

اتطـلـ	بمن اسو	دبيش	تدونـه
فعولـن	مفاعلن	فعول	مفاعلن
ابـو م	طر نوعا	مر نو	ابو سعد
فعـول	مفاعلن	فعول	مفاعلن

بيت الاثلم المكفوف

شاقتك احداج سليمى بعاقل

فعينـاك للبين تجودان بالدمع

نقطيعه

شاقت	كاحداج	سليمى	بعـاقلن
فعلن	مفاعيل	فعولن	مفاعلن

فعينـا	كللبين	نجودا	نبددمعي
فعولن	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن

بيت الاثرم

هاجك ربع دارس الرسم باللوى لاسماء عفى آيه المور والقطر

هاج	كر بعندا	رمىردس	مبللوى
فعلن	مفـاعيلن	فعولن	مقاعلن

لا سما	ءعففاا	يهلمو	رولقطر
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن

٨ — كتاب الزبدية .

٩ — كتاب الاعياد وفضائل النوروز .

١٠ — كتاب الامامة في تفضيل علي بن ابي طالب وتصحيح امامة من تقدمه .

١١ — كتاب الوزراء .

١٢ — كتاب عنوان المعارف في التاريخ .

١٣ — كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته .

١٤ — كتاب العروض الكافي : هكذا سماه ياقوت في معجم الادباء ولعله كتاب الاقناع الذي سبق الكلام عليه .

١٥ — كتاب جوهرة الجمهرة : هو مختصر كتاب الجمهرة لابن دريد والجمهرة من أصول كتب اللغة ودواوينها الفه ابن دريد ببلاد فارس لابني ميكال واتبع في ترتيبه ترتيب كتاب العين للخليل بن احمد وسماه بالجمهرة لانه اختار فيه الجمهور من كلام العرب ·

١٦ — كتاب نهج السبيل في الاصول ·

١٧ — كتاب اخبار ابي العيناء ·

١٨ — كتاب نقض العروض ·

١٩ — كتاب تاريخ الملك واختلاف الدول ·

٢٠ — كتاب الزيديين ·

٢١ — ديوان الصاحب ابن عباد : منه نسخة مخطوطة في مكتبة اياصوفيا بالقسطنطينية وكذلك قصيدتان من شعره في مكتبة برلين ·

اسلوبه وخصائصه

لم ينقص الصاحب شيءٌ من ادوات الاديب الكسبية فهو غزير العلم جم الادب واسع الرواية عالي الثقافة حسن المحاضرة قضى حياته في الطلب والمذاكرة والانشاء والتأليف · ولكن شدة عنايته بتلك الادوات الكسبية ادخلت الضيم على اعظم عنصر في ادبه وهو الطبع وما ينتج عنه من ابتكار في المعنى واستقلال في الرأي ·

فحسن اللفظ ومتانة التركيب ورنين الاسجاع وجمال الاستعارة ولطف التشبيه ولباقة التورية ومحكم الاستشهاد وما الى ذلك من ادوات التزويق والخلابة غاية في رأي الصاحب لا واسطة ومن اعتبر الادب كذلك قلت معانيه وان كان فكره مولدا وضعف عمل تفكيره وان كان صحيحا واضطر الى استعارة معاني غيره حتى اذا فتح الله عليه بمعنى جديد ابلاه بكثرة ترديده ·

لغة الصاحب لغة عذبة مأنوسة لا غريب فيها ولا مستكره شأن لغة جمهرة الكتاب في عصره فانهم كانوا يتوخون السهولة

والوضوح في المفردات أكثر من الشعراء ، وادباء المشرق خاصة (والمراد بالمشرق بلاد العجم) معروفون بالترقيق قال ابو تمام الطائي :

قد ثقفت منه الشآم وسهلت   منه الحجاز ورققته المشرق

فالصاحب على طول باعه في علم اللغة وحفظه لغريبها لا تكاد تجد له لفظة وحشية في رسائله او في شعره وذلك من مقتضيات الصنعة في اختيار الالفاظ . ولغته في شعره الين منها في نثره وقد يسف في بعض الاحيان حتى يأتي بما يشبه كلام العامة كقوله وان كان فيه لزوم ما لا يلزم :

يا ابا القاسم قل لي   قل لماذا لا تزور
كنت قد قدمت وعداً   فاذا وعدك زور

وهكذا فان شدة حرصه على السهولة تورده احيانا موارد الاسفاف . وما يروى عنه من الغريب والوحشي الذي كان يمتحن به الطارئين عليه من الادباء محمول على سبيل التحدث بنعمة العلم واظهار البراعة في الحفظ والرواية ولكنه لم يستعمله في نثر او شعر جريا على طريقة استاذه ابن العميد في انتقاء الالفاظ العذبة في الذوق الخفيفة على السمع . قال

الصاحب في الكشف عن مساوئ المتنبي : « ما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته و ينقده نقد جهابذته غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل ابن العميد فانه يتجاوز نقد الابيات الى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن » وقال ايضا ينعي على ابي الطيب المتنبي استعماله الغريب : « واظم ما يتعاطاه التفاصح بالالفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء او غذي لبن ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر » ·

· · · · ·

للصاحب ولوع بالسجع سبق به جميع من تقدمه من الكتاب قال ابو حيان التوحيدي : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد قلت لابن المسبي اين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو انه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل و كلفة صعبة وتجشم امور وركوب اهوال لما كان يخف عليه ان يفرج عنها ويخليها بل يأتي بها و يستعملها

ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها »

وقال ابو الفتح ابن العميد : « خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجها الى اصفهان ومنزله ورامين وهي قرية كالمدينة فجاوزها الى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء الا ليكتب الينا كتابي هذا من النوبهار يوم السبت نصف النهار »

وقال صاحب معاهد التنصيص : عزل الصاحب عاملا بقم فكتب اليه : ايها العامل بقم قد عزلناك فقم .

وقد انتقد ضياء الدين ابن الاثير وهو من المغرمين بالسجع سجع الصاحب لان معانيه كانت تبعا لاسجاعه اي انه كان يبذل المعنى في سبيل السجع قال في المثل السائر : « واعلم ان للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة فان عري الكلام المسجوع منه فلا يعتد به اصلا وهذا شيء لم ينبه عليه احد غيري ... والذي اقوله في ذلك هو ان تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه .... وجل كلام الناس المسجوع جار عليه واذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن

العميد وابن عباد فانك ترى اكثر المسجوع منه كذلك ·
الى ان قال فمن ذلك (سجع الصاحب) ما ذكره في
وصف مهزومين فقال: طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وباصلابهم
نحورهم · وكلا المعنيين سواء · ومن كلامه : لا تتوجه همته
الى اعظم مرقوب الا طاع ودان، ولا تمتد عزيمته الى افخم
مطلوب الا كان واستكان · وكل هذا الذي ذكره شيء
واحد · وله من كتاب : وصل كتابه جامعا من الفوائد اشدها
للشكر استحقاقا، واتمها للحمد استغراقا، وتعرفت من احسان
الله فيما وفره من سلامته، وهناه من كرامته، انفس موهوب
ومطلوب، واحمد مرقوب ومخطوب · وهذا كله متماثل المعاني
متشابه الالفاظ »

ولم يقف غرام الصاحب بالصنعة عند السجع فحسب بل
كان منقادا في اسلوبه الى الصنعة في كل جزء من اجزاء
الجملة اعني انه لم يكن يقنع بتسجيع الفواصل بل كان يعنى
بالمزاوجة بين اوائل الجملتين واواسطها فيأتي بالكلمة واختها
واللفظة ولفقها حتى تكون أجزاء جملتيه سجعاً في سجع كقوله:
لكنه عمد للشوق فاجرى جياده غرباً وقرحاً، واورى زناده قدحاً

فقدحا . وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفاً ببلدتك، وتظلمه كلفاً باهل جلدتك . وقوله : اطع سلطان النهى دون شيطان الهوى . وقوله : الرأي اقومه احكمه وأشده أسده .

وقريب من ذلك قوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه . وقوله في استهلال رسالة في تحذير العامة من الخوض في الاراجيف :

(ان الله تعالى مع عظيم حكمته ، وفسيح رحمته ، واستغنائه عن الامم ماضيها وباقيها ، واستعلائه على الخلائق طائعها وعاصيها ، جعل لمواهبه فروضاً من الشكر من أقامها ، وعظم مشعرها ومقامها ، ارتبطها عليه ، وثبطها لديه ، ومن اساء جوارها راكباً هواه ، واخفى منارها ناكباً عن مغناه ، ارتجعها منه ، وانتزعها عنه ، وتركه مثلة للناظرين ، وعبرة للغابرين ، بذلك جرت سنته في الاولين ، ولقدمت معذرته الى الآخرين [1]) .

وهكذا فقد اربى على استاذه ابن العميد كثيراً في التزام احكام الصنعة .

كل ما مر بك من مظاهر التزويق والتنميق التي كانت

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٦٥ (مخطوط)

شائعة في كلام الصاحب لم تكن لتشفي غليله من الغرام بالصنعة اللفظية فبدا له أن يسن طريقة في التكلف غاية في الغرابة وذلك أنه نظم قصيدة في مدح آل البيت تبلغ سبعين بيتاً معراة من الالف اولها :

قد ظل يجرح في صدري　　من ليس يعدوه فكري

ثم عمل قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ففتح الباب لمن اتى بعده من ادباء الصنعة فجاروه زيادة ونقصاً وتفننوا في اللعب على الحروف فانشأ الحريري رسالتيه السينية والشينية والتزم حرف السين في كل كلمة من كلمات الاولى وحرف الشين في كلمات الثانية وأربى عليه من اتى بعده فالتزموا الحروف المهملة في القصيدة من اولها الى آخرها وتشدد بعضهم فعين من الحروف المهملة عدداً لا يتجاوزه في القصيدة فسامح الله الصاحب وعفا عنه .

ولعل الذي اوحى الى الصاحب هذه الفكرة ما يروى عن واصل بن عطاء رأس المعتزلة من أنه كان يجتنب الراء في كلامه لانه كان يلثغ بها فاعجب الناس به واكبروا فصاحته فاحب الصاحب أن يشاطر واصلاً تلك المحمدة ويزيد عليه فاجتنب أكثر مما اجتنبه واصل ولكن كان شأن واصل كشأن المريض

الذي يجيد الحمية فيبدو لك صحيحاً وشأن الصاحب كالصحيح الذي يتمارض فيبدو مريضاً .

ولعل ما يروى عن قس بن ساعدة الايادي من أنه اول من قال في خطبه (أما بعد) اوحى الى الصاحب أيضاً أن يفتتح بعض رسائله بقوله (أما قبل) ليساهم الاوائل شرف سبقهم أيضاً فلقد كتب الى بعضهم تهنئة بتجدد نعمة (أما قبل [1] اطال الله بقاء سيدي فالحمد لله مولى النعم ومسدي المنح منه ابتداء الاحسان واليه مرجع الشكر آخر الزمان وصلى الله على النبي محمد وآله الاخيار وأما بعد فهنأ الله سيدي الموهبة التي ساقها اليه ومدّ رواقها عليه ....)

وقال في موضع آخر (... و بعد او قبل [1] فهذا الشريف حسن الهدى والستر جميل الطريقة والامر ...)

والصاحب مغرم بانواع البيان يكثر من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية كقوله : « نحن يا سيدي في مجلس غني الا عنك، شاكر لامنك، قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج، وفاحت مجامر الاترج، وفتقت فارات النارنج،

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٢٠ وص ١٨٩

وانطقت السنة العيدان، وقام خطباء الاوتار، وهبت رياح الاقداح، ونفقت سوق الانس، وامتدت سماء الند ....» وقد كان هذا النوع من البيان مستحسناً في عصر الصاحب قال ابو بكر الخوارزمي انشدني الصاحب نتفة له منها هذا البيت :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له يسمح بترياق ريقه

فاستحسنته جداً حتى حممت من حسدي له عليه وودت لو أنه لي بالف بيت من شعري .

وله فصل آخر كل جمله تشبيهات وهو : نحن وحياتك في مجلس راحه ياقوت ونوره در ونارنجه ذهب ونرجسه دينار ودرهم يحملها زبرجد ....»

***

لو ترك الصاحب نفسه على سجيتها أو لو اقتصد في صنعته لرفد الادب باكثر مما رفده لان طبعه فياض وحسه دقيق وذوقه صحيح زد على ذلك سعة علمه وسمو ثقافته لذلك فاجوبته وتواقيعه وكل ما كان يقوله أو يكتبه بداهة أعلى طبقة مما كان يتكلف بصنعه قال ابو حيان التوحيدي : «كان الصاحب كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان قد نتف من كل أدب

شيئاً وأخذ من كل فن طرفاً والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس له من الجزء الآلهي خبر ولا له فيه عين ولا أثر وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ويقول الشعر وليس بذاك[1] وبديهته غزارة وأما رويته فخوارة» . وكلامه الذي كان يقوله بداهة واجوبته وتواقيعه تدل على فصاحة ولسن وشدة عارضة مع أن اكثرها لا يخلو من الصنعة التي صارت كالطبع عند الصاحب فمن ذلك ما رواه بديع الزمان الهمذاني قال: لما ادخلني والدي الى الصاحب ووصلت الى مجلسه واصلت الخدمة بتقبيل الارض فقال لي يا بني اقعد كم تسجد كأنك هدهد . وقال ابو منصور البيع :دخلت يوماً على الصاحب فطاولته الحديث فلما أردت القيام قلت لعلي طولت فقال لا بل تطولت .

وقال ابو حيان التوحيدي : كان ابن عباد ورد الري سنة ٣٥٨ مع مؤيد الدولة وحضر مجلس ابن العميد وجرى بينه

(١) لعل الصواب بذاك

و بين مسكويه كلام ووقع تجاذب فقال مسكويه دعني حتى اتكلم ليس هذا نصفة ، اذا اردت ان لا اتكلم فدع على فمي مخدة فقال الصاحب بل ادع فمك على المخدة . وطارت النادرة ولصقت وشاعت بين الناس و بقيت .

وقال ابو حسن العلوي الهمذاني الوصي : لما توجهت تلقاء الري في سفارتي اليها من جهة السلطان فكرت في كلام القى به الصاحب فلم يحضرني ما ارضاه وحين استقبلني في العسكر وافضى عناني الى عنانه جرى على لساني : « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » . فقال «اني لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون» . ثم قال مرحباً بالرسول ابن الرسول الوصي ابن الوصي .

وحبس الصاحب بعض عماله في مكان ضيق بجواره ثم صعد السطح يوماً فاطلع عليه فرآه فناداه المحبوس باعلى صوته « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فقال الصاحب : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » .

وقال يوماً لبعض من تأخر عن مجلسه لعلة وجدها : ما الذي كنت تشتكيه ؟ قال : الحمى قال : قه يعني الحماقة فقال وه يعني القهوة .

وقال بعض ندماء الصاحب : كنت يوماً بين يديه فقدم البطيخ فقلت لا متركك فقال بالعجلة لمتركك وكنت اريد ان اقول لامتركك للبطيخ فسبقني الى التبادر بهذا التجنيس

واستأذن عليه الحاجب يوماً لانسان طرسوسي فقال الطر في لحيته والسوس في حنطته .

وانفذ اليه ابن فارس من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال رد الحجر من حيث جاءك ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وامر له بصلة .

وقال لرجل رفع اليه قصة وهو يكثر الكلام : هذا رفع القصص لا رفع القصص .

ودخل الى الصاحب رجل لا يعرفه فقال له ابو من ؟ فانشد الرجل :

وتتفق الاسماء في اللفظ والكنى   كثيراً ولكن لاتلاقى الخلائق

فقال له اجلس يا ابا القاسم .

قال ابو الرجاء الاهوازي لما قدم علينا الصاحب في السنة التي جاء فيها فخر الدولة الى الاهواز مدحته بقصيدة قلت فيها :

الى ابن عباد أبي القاسم الصـ   ـاحب اسماعيل كافي الكفاة

فقال قد كنت والله اشتهي بان تجتمع كنيتي واسمي ولقبي واسم ابي في بيت . فلما انتهيت الى قولي فيها : « ويشرب الجيش هنيئاً بها »

قال يا ابا الرجاء امسك فأمسكت فقال :

ويشرب الجيش هنيئاً بهـا   من بعد ماء الري ماء الصراة

هكذا هو ؟ قلت نعم ، قال احسنت ، قلت يامولاي احسنت انت ، عملت انا هذا في ليلة وانت عملته في لحظة .

ودخل عليه رجل فقال له من اين ؟ فقال من بنج ده وهي بالفارسيه خمس قرى ، فقال له الصاحب يحمق من كان من قرية واحدة فكيف من كان من خمس قرى .

وسأل الصاحب أبا الحسين الربعي عن مسألة فأجاب جواباً اخطأ فيه فقال له اصبت فقبل الارض بين يديه شكراً فلما رفع رأسه قال عين الخطأ .

ورفع الضرابون من دار الضرب اليه رقعـة في مظلمة مترجمة بالضرابين فوقع تحتها في حديد بارد .

وكتب عامل رقعة اليه في التماس شغل وفي الرقعة ان رأي مولانا ان يأمر باشغالي في بعض اشغاله فعل فوقع تحتها

من كتب لا إشغالي لا يصلح لأشغالي

وقال العتبي كتب بعض اصحاب الصاحب رقعة اليه في حاجة فوقع فيها ولما ردت اليه لم ير فيها توقيعاً وقد تواترت الاخبار بوقوع التوقيع فيها فعرضها على ابي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو الف واحدة وكان في الرقعة فان رأي مولانا ان ينعم بكذا فعل فاثبت الصاحب امام فعل الفاً يعني افعل ·

على انه كان يتقعر بعض الاحيان في احاديثه على سبيل التظرف وما يروى من ذلك مروي عن ابي حيان التوحيدي قال ابو حيان : دخل يوماً دار الامارة الفيرزان المجوسي في شيء خاطبه به فقال له : انما انت مخش مجش محش لا تهش ولا تبش ولا تمش فقال الفيرزان ايها الصاحب برئت من النار ان كنت ادري ما تقول ان كان رأيك ان تشتمني فقل ما شئت بعد ان علم فان العرض لك والنفس لك فداء لست من الزنج ولا من البربر كلمنا على العادة التي عليها العمل والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ولا من أهل دينك من أهل السواد وقد خالطنا الناس وما سمعنا منهم هذا النمط ·

وقال ابو حيان : سمعته يقول وقد جرى حديث الابهرى المتكلم وكان يكنى ابا سعيد فقال : لعن الله ذاك الملعون المأبون المأفون جاءني بوجه مكلح وانف مفلطح ورأس مسطح وسرم مفتح ولسان مكبح فكلمني في مسألة الاصلح فقلت له اعزب عليك لعنة الله الابرح الذي يلزم ولا يبرح .

وقال ابو حيان : قال ابن عباد لشيخ من خراسان في شيء جرى والله لولا شيء لقطعتك تقطيعاً و بضعتك تبضيعاً ووزعتك توزيعاً ومزعتك تمزيعاً وجزعتك تجزيعاً وادخلتك في حرامك ثم وقف ساعة ثم قال جميعا .

* * *

بالرغم من كل القيود التي غل الصاحب بها نفسه فان الناظر في آثاره يلمح نفساً حساسة شاعرة تطل من وراء الحجب الى جمال الطبيعة في شتى مظاهرها فتطرب لخرير المياه وتعشق لطف الازهار وتثمل بعبيرها كما ترتاع لمنظر الثلج وتخشع امام سعة الفضاء في الارض والسماء وما الى ذلك من مظاهر الطبيعة في جلالها وجمالها لذلك فقد اكثر

الصاحب من وصف الرياض والبساتين والازهار والرياحين والاشجار والفواكه والثمار واحوال الاجواء والانواء في نثره وشعره كقوله في باكورة خلاف قد نوّر: اتنوير الخلاف فضائل لا تحصى ، ومحاسن تطول ان تستقصى ، منها انه اول ثغر يبسم عنه الربيع ويضحك ، ودر يعقد على القضبان ويسبك ، ولتمايله اذكار بقدود الاحباب ، وتهييج لسواكن الاطراب ، وحمل الحيّ قضيب منه وردانه متعادلة ، ولداته متقابلة ، فأنفذته مع رقعتي هذه اليك ، وسألت الله أن يعيده الف حول عليك ، وقلت :

وقضيب من الخلاف بديع   مستخص باحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء علينا   وسعى في جلاء وجه الربيع
وحكى من احب عرفاً وظرفاً   واهتزازاً يثير ماء ضلوعي
رقة ما نظمت نحو بديع الـ   ـمجد حاكى الربيع حسن صنيع

ولا محل هنا للاستشهاد باكثر من ذلك لأنه سيرد عليك كثير من مثله في الفصل الذي يحتوي على نصوص من كلامه في آخر هذه الرسالة وفيه وصف الشتاء والثلج والفلاة والرياض وما فيها من اشجار وانهار وازهار واطيار

والفواكه كالعنب والتين والثمار كالاترج والنارنج وما الى ذلك من الأشباه والنظائر .

* * *

قد يكون من توضيح الواضح الدلالة على شيوع الروح العربية والثقافة الاسلامية في أدب الصاحب ككثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف وايراد النكات الدالة على معرفة باحكام المذاهب والفرق والاستشهاد بامثال العرب والتمثل باشعارهم والاشارة الى اجوادهم وفرسانهم وشعرائهم وخطبائهم فكل ذلك ماثل في كلامه من ذلك العهد[١] الذي كتبه عن مؤيد الدولة الى القاضي عبد الجبار حين ولاه قضاء القضاة فلقد ختم كل فقرة منه بآية قرآنية وفي ديوان رسائله كتب[١] أشبه بمتون في تاريخ أدب العرب وقد مر شيء من ذلك في البحث عن علمه .

ولكن الذي أريد أن انبه اليه هنا هو الاثر الفارسي في أدبه فالرجل وان غاب عليه أدب العرب وشغفه حبهم حتى عد من

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٤٠ و١٤٨ و١٥١ (مخطوط)

اعلام ادبائهم فقد كان يتقبل القصائد الفارسية التي يمدحه بها الشعراء من الفرس ويجيزهم عليها بل كان يمتحن الادباء الطارئين عليه بتعريب الشعر الفارسي ·

ذكر الاستاذ براون في تاريخ فارس الادبي ج ١ ص ٤٦٣ نقلا عن محمد العوفي صاحب لباب الالباب وجوامع الحكايات ان بديع الزمان الهمذاني لما وفد على الصاحب كان ابن اثنتي عشرة سنة فاراد الصاحب ان يمتحن براعته فامره بتعريب ابيات من الشعر الفارسي لمنصور بن علي المنطقي فسأله البديع عن البحر والروي اللذين يقترحها فاقترح البحر السريع وروي التاء فعرب البديع تلك الابيات بسرعة غريبة (١) ·

ومهما حاول الصاحب ان يجاري العرب في بلاغتهم واساليبهم فان الروح الفارسية لابد من ان تجد منفذاً تطل منه في شعره ونثره وان كان على الندورة من ذلك تشخيص الجماد وانزاله منزلة العاقل المتكلم كقوله :

أتاني البدر باكياً خجلاً   فقلت ماذا دهاك ياقمر

---

(١) لم اجد هذه الابيات في ديوان البديع المطبوع في مصر سنة ١٣٢١

قال غزال أتى ليعزلني   بحسنه فالفؤاد منفطر
فقلت قبل ترابه عجلا   واسجد له قال كل ذا غرر
قد بايعت انجم السماء له   فليس لي مفزع ولا وزر

ومن ذلك استعمال لعب الفرس كالكرة والصولجان أدوات للتشبيه كقوله :

بعثنا من النارنج ما طاب عرفه   فقيل على الاغصان منه نوافج
كرات من العقيان أحكم خرطها   وايدي الندامى حولهن صوالج

ومن ذلك قوله وهو بالروح الفارسية اشبه :

لما بدا العارض في الخد   زاد الذي ألقى من الوجد
وقلت للعذال يامن رأى   بنفسجاً يطلع من ورد

ومن ذلك تعظيم السلطان وتقديسه كقوله :

لو كان للخلق آلهان   لكان فخر الدولة الثاني

وكقوله في عضد الدولة :

فوالله لولا الله قال لك الورى   مقال النصارى في المسيح بن مريم
ولو قلت ان الله لم يخلق الورى   لغيرك لم أحرج ولم أتأثم

وقوله :

اذا أدناك سلطان فزده   من التعظيم واحذره وراقب

فما السلطان الا البحر عظما   وقرب البحر محذور العواقب

وكقوله من رسالة (١) واذا عزم فقد اوقع ، واذا امر فقد نفذ ، واذا قال فقد ارتسم ، واذا صال فقد انتقم ، ولاة الارض خلفاؤه ، وجنود الاقاليم اولياؤه ، والقدر يخدم امره ، والقضاء يتبع حكمه ، والدهر يمتثل أمره ، والزمان يتقبل أخذه وتركه .... يرتقي مناكب الجبال الرواجح ، حتى يحطمها الى بطون الاباطح .

* * *

قلت في اول هذا الفصل ان من يعتبر الادب اعتبار الصاحب يضطر لاستعارة معاني غيره وتكرير المعنى الذي يفتح عليه به والصاحب نفسه يفتي بسرقة المعاني ولا يرى فيها جناحاً قال في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ص ١١ « فاما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام عليها ولكن يعاب ان كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جل المعاني ثم يقول لا اعرفهم ولم اسمع بهم ثم ينشد أشعارهم فيقول هذا شعر عليه اثر التوليد » ولم ينفرد الصاحب بهذا الرأي بل سبقه اليه

---

(١) المختار من ديوان رسائله ص ٢١٨

—

الادباء والنقاد المتقدمون قال الآمدي في كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري : « ان من ادركته من اهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين اذ كان هذا باباً ما تعرى منه متقدم ولا متأخر »

واليك بعض المعاني التي اخذها من غيره قال يصف اقلاماً :

« وتأنقت في بريها فاتت كمناقير الحمام » وهو عكس قول ذي الرمة :

كأن انوف الطير في عرصاتها　　خراطيم اقلام تخط وتعجم

وقال: « الصدر يطفح بما جمعه ، وكل اناء مؤد ما اودعه » وهو المثل العربي بنفسه « كل اناء ينضح بما فيه » ببعض تصرف .

وقال في رسالة يعزي بها « دفن يده بيده ، واهدى نفسه للحده » وهو مأخوذ من قول اعرابي يرثي ابنه :

بني لئن ضنت جفون بمائها　　لقد قرحت مني عليك جفون
دفنت بكفي بعض نفسي فاصبحت　　وللنفس منها دافن ودفين

وقوله يعزي أيضاً « وفاح فتيت المسك من مآثره ، كما يفوح من مجامره » ينظر الى قول ابي عبد الرحمن العطوي يرثي احمد بن ابي دواد :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه اصلاب قوم تقصف
وليس نسيم المسك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخلف

وقوله « قد ورث الشرف جامعاً عن جامع ، وشهد له نداء الصوامع » مأخوذ من قول علي بن محمد العلوي :

لقد فاخرتنا من قريش عصابة بمط خدود وامتداد اصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا عليهم بما نهوى نداء الصوامع

وقوله « انت خدين فكري وسميره ، وامين قلبي واميره ، تصرفه كيف احببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الافعال بالاسماء » مأخوذ من قول ابي تمام الطائي في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء

وقال في الخمر « فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرء في السقم ، والنار في الفحم » فالسجعة الاولى مأخوذة من قول ابي نواس في الخمر :

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

والسجعة الثانية من قول بعض شعراء هذيل يصف قانصاً ظفر بصيد بسرعة المشي :

فتمشي لا يحس به كتمشي النار في الضرم

وقال أبو الفضل الميكالي سرق الصاحب قوله :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له يسمح بترياق ريقه

من قول القائل :

لدغت عينك قلبي انما عينك عقرب
لكن المصة من ريـ ـقك ترياق مجرب

وقال الثعالبي معنى قول الصاحب في الثلج :

وكأن السماء صاهرت الار ض فكان النثار من كافور

ينظر الى قول ابن المعتز :

وكأن الربيع يجلو عروساً وكأنا من قطره في نثار

وقول الصاحب :

يقولون لي كم عهد عينك بالكرى فقلت لهم مذ غاب بدر دجاها
ولو تلتقي عين على غير دمعة لصارمتها حتى يقال نفاها

مأخوذ من قول المهلبي الوزير :

تصارمت الاجفان منذ صرمتني فما تلتقي الا على عبرة تجري

وقول الصاحب :

هات مشطاً الي وليك عاجاً فهو ادنى الى مشيب الرؤوس

واذا ما مشطت عاجاً بعــاج   فامشط الآبنوس بالآبنوس

مأخوذ من قول ابي عثمان الخالدي :

ورأتني مشطت عاجاً بعــاج   فامشط الآبنوس بالآبنوس

واخذ قوله في ابن العميد :

الى سيد لولاه كان زماننا   وأبناؤه لفظاً عرياً عن المعنى

من قول المتنبي :

(والدهر لفظ وانت معناه)

وقوله :

فقلت لاتنكر وكن عذيري   كم صارم جرب في خنزير

من قول الحمدوني :

(هبوني امرءاً جربت سيفي على كلب)

وقوله :

والله لا راجعته ولو انه   كالشمس أو كالبدر أو كبويه

مأخوذ من قول ابن المعتز :

والله لا كلمته ولو انه   كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفي

وعقد الثعالبي في الجزء الاول من يتيمة الدهر فصلا عنوانه « قطعة من حل الصاحب وغيره نظم المتنبي واستعانتهم بالفاظه

ومعانيه في الترسل » جاء فيه مما يتعلق بالصاحب :

فصل له من رسالة في وصف قلعة افتتحها عضد الدولة :

واما قلعة كذا فقد كانت بقيــة الدهر المديد ، والأمد البعيد ، تعطس بأنف شامخ من المنعة ، وتنبو بعطف جامح على الخطبة، وترى أن الأيام قد صالحتها على الاعفاء من القوارع، وعاهدتها على التسليم من الحوادث ، فلما أتاح الله الدنيا أبن بجدتها ، وأبا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون ما بين البحور والانهار ، وظنوا الاقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا ان رأوا معقلهم الحصين ومثواهم القديم نهزة الحوادث وفرصة البوايق ، ومجر العوالي ومجرى السوابق .

وانما ألمّ بالفاظ بيتين لأبي الطيب أحدهما :

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكا اليه السهل والجبل

والآخر :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

وفصل له : لئن كان الفتح جليل الخطر، حميد الأثر، فان سعادة مولانا لتبشر بشوافع له يعلم معها ان لله اسراراً في علاه لا يزال يبديها ، ويصل اوائلها بتواليها

وهو من قول أبي الطيب :

ولله سر في علاك وانمـا   كلام العدى ضرب من الهذيان

(فصل) ولو كان ما احسنه شظية من قلم كاتب لمـا غيرت خطه ، او قذى في عين نائم لما انتبه جفنه . وهو من قول ابي الطيب :

ولو قلم القيت في شق رأسه   من السقم ما غيرت من خط كاتب

(فصل للصاحب في التعزية) اذا كان الشيخ القدوة في العلم وما يقتضيه ، والاسوة في الدين وما يجب فيـه ، لزم ان يتأدب في حالات الصبر والشكر بأدبه ، و يؤخذ في ثارات الأسى والأسى بمذهبه ، فكيف لنا بتعزيته ، عند حادث رزيته ، الا اذا روينا له ، بعض ما اخذنا عنه ، واعدنا اليه ، طائفة مما استفدنا منه . وانما هو حل من قول أبي الطيب :

انت يا فوق ان يعزى عن الاحـ   باب فوق الذي يعزيك عقلا

و بالفاظك اهتدى فـاذا عز   اك قال الذي له قلت قبلا

(وفصل له) وقد اثنى عليه ثناء لسان الزهر ، على راحة المطر . وهو من قول ابي الطيب :

وذكي رائحة الرياض كلامها　　تبغي الثناء على الحيا فيفوح

ومن معانيه التي كررها قوله :

انت نذل من كرام　　انت في الطاوس رجله

كرره فقال :

وان اباك اذ تعزى اليه　　لكالطاوس يقبح منه رجله

وقوله :

وشادن أصبح فوق الصفة　　قد ظلم الصب وما انصفه

كم قلت اذ قبل كفي وقد　　تيمني يا ليت كفي شفه

كرره فقال :

ابا شجاع يا شجاع الورى　　ومن غدا في حسنه قبله

قبل فمي ان كنت لي موثراً　　فاليد لا تعرف القبله

وقال أيضاً في هذا المعنى

وشادن جماله　　تقصر عنه صفتي

اهوى لتقبيل يدي　　فقلت لا بل شفتي

* * *

تقدم في سيرة الصاحب ان فخر الدولة مزح معه مرة فبدت آثار الكراهة على وجهه فلم يعد بعدها فخر الدولة لمزاحه بل كان

ينتقل من مجلس الانس الى مجلس الحشمة اذا دخل عليه الصاحب . ومع ذلك فقد كان الصاحب يمازح اصحابه الذين ينبسط اليهم ويراسلهم بانواع الهزل والدعابة وربما استرسل بالفكاهة الى حد المجون . فكأنه كان يعتبر الدعابة ضرباً من التهكم والعبث والتنادر لذلك فله أن يمازح غيره (يعبث به ويتنادر عليه ويضحك منه) وليس لاحد ان يمازحه ولو كان سيده فخر الدولة وهذا لون آخر من عجب الصاحب بنفسه وعدم انصافه غيره فقد روى عنه انه كان يعيب التيه ويتيه فانظر كيف كان أيضاً يعيب المزاح ويمزح . قال في احد شعرائه ابي الحسن البديهي :

تقول البيت في خمسين عاماً   فلم لقبت نفسك بالبديهي

وقال يداعب بعض اخوانه :

قلبي على الجمرة يا ابا العلا   فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الختم عن كيسه   وهل كحلت الناظر الاكحلا
انك ان قلت نعم صادقاً   ابعث نثاراً يملأ المنزلا
وان تجبني من حياء بلا   ابعث اليك القطن والمغزلا

وكتب مداعباً :

خبر سيدي عندي وان كتمه عني، واستأثر به دوني، وقد عرفت خبره البارحة في شربه وانسه، وغناء الضيف الطارق وعرسه، « وكان ما كان مما لست اذكره » وجرى ما جرى مما لست انشره، واقول ان مولاي امتطى الاشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار فكيف شاهدجريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف أفي سعة ام ضيق، وهل افرد الحج ام تمتع بالعمرة، وقال في الحملة بالكرة، ليتفضل بتعريفي الخبر فما ينفعه الانكار، ولا يغني عنه لا الاقرار، وارجو ان يساعدنا الشيخ ابومرة، كما ساعده مرة، فنصلي للقبلة التي صلى اليها، ونتمكن من الدرجة التي خطب عليها، هذا وله فضل السبق الى ذلك الميدان، الكثير الفرسان .

وكان الصاحب مع جلالة قدره وسمو مكانته وتبحره بعلوم الدين ورواية الحديث لا يحجم عن الهجاء الفاحش ولا يتأثم من الاقذاع فيه وقد روى له الثعالبي في يتيمة الدهر اشياء من فاحش الهجاء لا سبيل لنقل شيء منها في مثل هذه الرسالة وجريرة ذلك ليست على الصاحب وحده بل على العصر الذي كان اهله لا يتحرجون من الاقذاع في الهجاء .

شعره

قلّ في ادباء العربية من جمع بين الشعر والنثر وجوّد فيهما · ومع ذلك فلا نكاد تجد عالماً أو اديباً لا يشارك الشعراء في صنعتهم والكتاب بجملتهم يعانون قرض الشعر بين مكثر ومقل ومسهب وموجز ·

البواعث التي تغري الكتاب بقول الشعر (عدا الطبع والتظرف والاستزادة من فنون الادب) هي الكسب والوسيلة اذ قد جرت العادة في ادبنا ان يختص الشعر بالمدح والرثاء والهجاء لذلك فقد كان الكاتب اذا انتجع ملكاً او وزيراً او رئيساً قدم بين يدي حاجته قصيدة يمدحه بها تكون ذريعة له ولو لم تكن صنعته الشعر · فلقد روي عن الجاحظ انه مدح بقصيدة واحدة غير واحد من الاعيان لان الجاحظ غير مطبوع على الشعر وكتاب القرن الرابع الذي عاش فيه الصاحب عانوا نظم الشعر واكثروا من قوله كابن العميد وابي بكر الخوارزمي وابي اسحاق الصابي وبديع الزمان الهمذاني الذي خلف لنا مع مقاماته ورسائله ديواناً من الشعر · والصاحب نفسه مكثر من

قول الشعر وله ديوان تقدم الكلام عليه وفي كتب الادب طائفة صالحة من اشعاره يستشهد بها المؤلفون في شتى الفنون وقد مدح الصاحب في اول امره ابن العميد وعضد الدولة وتناول جميع ابواب الشعر المعروفة في عصره فنظم في الادب والحكمة والوصف والغزل والمدح والفخر والرثاء والهجاء والدعابة وهو من احسن الكتاب شعراً ولكن الركن الذي تعتمد عليه منزلته في الادب هو النثر لا الشعر على انه يجود في البيتين وما فوقهما من المقطعات القصيرة حتى يخيل الى السامع ان الصاحب شارك الشعراء في كثير من حسهم وخيالهم ولكنه اذا اطال انقطع دون البلوغ فاستعان بوسائل الصنعة فاراك من انواعها صوراً غريبة فيها كثير من التأنق والتحذلق ولكنها كالجثة المحنطة لم تنفعها زينتها بعد ان فقدت الحياة لذلك لم تسلم له قصيدة .

اسلوب الصاحب في شعره كاسلوبه في نثره من حيث الصنعة والتزويق وربما كانت الصنعة في شعره اكثر كقصائده التي اجتنب في كل واحدة منها حرفاً معيناً من حروف الهجاء ولكن الشعر لم يكن يواتيه بمثل ما يواتيه النثر فكثيراً ما يسمو في انشائه الى منزلة هي في الذروة بين منازل كتاب

عصره أما اباته التي جود فيها فلا تخلي من السامع با كثر من الاستملاح والاستطراف وستطلع على أمثلة من شعره في آخر هذه الرسالة ·

نصوص من كلام الصاحب ابن عباد

اكثر آثار الصاحب فقدت ، وقليل منها لا يزال مخطوطاً كديوان شعره والمختار من ديوان رسائله ، وما طبع من نثره وشعره مفرق في كتب الادب والتراجم على سبيل الاستشهاد والاختيار لا يجمعه كتاب خاص ، والاطلاع عليه يقتضي تصفح كثير من الكتب ويستغرق زمناً طويلاً . لذلك فقد جمعت في هذا الفصل كل ما اتيح لي العثور عليه مما يجوز نشره من نثره وشعره المبثوث في كتب الادب . أما المختار من ديوان رسائله فقد انتقيت طائفة منه وارجو ان اوفق الى طبعه على حدة .

رسول الله

خيرة الله من خلقه ، والهادي الى حقه ، والمنبه الى حكمه ، والداعي الى رشده ، والمؤيد من عنده ، والمحتج به على جنه وانسه . مختار من اكرم المنابت ، منتخب من اشرف العناصر ، مرتضى من أعلى المحاتد ، موثر من أعظم العشائر ، معتام من انجم القبائل ، معضود بالمعجزات الغراء مرفود بالدلالات الزهر ، لاتخبو

ناره ، ولا يوضع مناره ، ولا يتحيف سناه وسناؤه ، هدي به الخلق من ضلالة سوداء دهماء ، وعلموا به من جم لقر بداء جهلاء ، مبارك مولده ، سعيد مورده ، قاطعة حجته ، سامية درجته ، ساطع صباحه ، متوقد مصباحه ، مظفرة حروبه ، ميسرة خطوبه ، نسخت بملته الملل ، وبشرعته الشرع ، وبنحلته النحل ، وبكلمته الكلم ، وبامته الامم ، وبسنته السنن ، وصار العاقب والخاتم ، والقاطع والجازم ، فقد أفرد بالزعامة وحده ، وختم بالأ نبي بعده ، فاستوفت دعوته شرق الارض وغربها ، ومسحت بر الدنيا وبحرها ، واذعنت له سود الرجال وحمرها ، وذلت لعزته صيد الملوك وكبرها ، وصار المخالفون سراً ، يضطرون الى اعتزاء اليه جهراً ، يفصح بشعاره على المنابر ، وبالصلاة عليه في المحاضر ، وتعمر بذكره صدور المساجد والمنابر ، ويستوي في التطامن لامره حالتا الغائب والحاضر ، والوارد والصادر ، لم يكتب كاتب الا ابتدأ مصلياً عليه ، ولم يختم الا برد السلام والتحية اليه ، كأنهم مسخرون غير موثرين ، ومجبورون غير متخيرين ، لطفاً من الله جمعهم على فضيلته ، والفهم على جديلته ، ذلك سيد الاولين والآخرين ، رسول الله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه اجمعين .

علي بن ابي طالب

اسلامه سابق ، ومحله سامق ، ومجده باسق ، وذكره نجم طارق ، وسيفه قدر وبارق ، وعلمه بحر دافق ، وامامته لواء خافق . ونظير هرون عند المشاكلة ، وباب المدينة عند المشابهة ، بدر يوم بدر بل شمسه ، واخو المصطفى بل نفسه ، مصلي القبلتين ، والهاشمي من الهاشميين ، كفؤ أشرف النسم ، وأكرم الكرائم في الامم ، نسله أعز نسل ، وأصله أفضل أصل ، به تحل المشكلات ، واليه ترجع المعضلات ، ولداه الشمس والقمر ، ولولا علي لهلك عمر ، سيفه ام الآجال ، ورمحه يتم الاطفال ، وحملته رفع السدود ، وصولته كسر البنود ، قوى الله به ازر المسلمين ، وافشى القتل في المشركين ، قسيم الجنان ، وباب الرحمة والرضوان ، ثاني اصحاب الكسا في اذهاب الرجس ، وحامل لواء الحمد عن يمين العرش ، وصاحب الحوض يسقي من شايع وبايع ، ويمنع من ناصب ونازع ، ذاك أمير المؤمنين صلوات الله تختص أوصافه عن المشاركة ، وتخلص نعوته عن المزاحمة .

وكتب الى بعض الاشراف معاتباً وملاطفاً :

وصل كتابك ايها الشريف اطال الله بقاءك ولكن بعد

ماذا؟ بعد ان كددتك بالعتب الوجيع ، وقرعتك بعصا التقريع .
وكأن الأكف قد عصرته بعد كد من ماء وجه البخيل
وما كذا كان الظن بك وخلقك الخلق الرحب ، وانت الحلال الحلو والبارد العذب ، وقد ينسى المرء ابعد خليليه داراً وحلة ، وان كان اصدقهم عهداً وخلة ، غير اني لم احسبك ترضى بالرتبة الدنيا في كرم العهد ، وترعى روضة الهوينا في صحة العقد ، فملأت يدي ثقة ورجاء ، حتى أعدتها عليّ صفراً خلاء ، وبعد ذلك فليت شوقي اليك ، على قدر حظي منك ، كلا بل انت خدين فكري وسميره ، وامين قلبي واميره ، تصرفه كيف احببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الافعال بالاسماء ، فاذا استنزلتك عن كتاب تصدره انفقت بالمعروف وجدت بالنذر المتفوه حتى كأن بياض قرطاسك من شيبة الحمد ، وسواد انفاسك من سواد الناظر والقلب ، فلا تفعل جعلت فداك فبغير هذا انزلت السور ، وتليت النذر ، وتكررت العبر ، وتوبعت ربيعة وتمضرت مضر ، وآخر دعواي ان كيف شئت فكن ، وقل اذا عزاخوك فهن ، سقى الله عهدك غيثاً كغزارة فضلك ، وسلاسة طبعك ، وصفاء ودك ، ولا عاشت المحاسن من بعدك .

وكتب جواباً على عتاب :

التجرم يا سيدي وخليلي دأب من ضاق عطنه عن الاخلاق السمحة ، وتضاءل وده عن الطباع العذبة ، فهو دائماً يخلق لاخوانه جريرة يصليهم نار غبها ، ويوليهم جانب عذلها ، والحر كل الحر من لحظ احوالهم بعين تجمع الى النصفة التسمح ، والى المعدلة الترخص ، وان شاهد جميلاً كثر قليله ، وان صادف تقصيراً حسن قبيحه ، وقد نزهك الله عن ان تكون معنتاً وعريضاً تنتهز الفرصة . فما هذا التعدي الذي علقت اوثق اسبابه ، والتجني الذي ولجت اضيق ابوابه؟ وقد علم الناس كيف ايثاري اياك واكباري ، وعلمت كيف ابامسطك في خاص احوالي واسراري ، حتى كأنا قضينا الشباب على تلاوم ، وصافحنا الكهولة عن تنادم ، ومتى كان الاعراض الذي اشرت اليه ، والانقباض الذي نصصت عليه ، ومن هذا الواشي الذي يطمع في احالة حالك ولو قعد من الدهر على رصد ، ونفث من السحر في العقد ، فكيف حسبتني ممن تستفزه السعاة ، وتهزه الوشاة ؟ انك تستخف حلماً امثل الاطواد الصم تشهد له بالرزانة ، والجبال الشم تبرأ اليه من الرصانة ،

ولكل ذي قلم جانب من البلاغة هو فيه اوسع عناناً ، وارحب جناناً ، وكنت في العتب افسح مجالاً ، واملأ سجالاً ، وقد اردت ان اعاتبك عن عتبك فاطيل ، وابدي القول واعيد ، واذكر ما في هذا الباب من المذام (التي) تضاد محاسنك ، وتحادّ مناقبك . ثم كففت وصدفت ، واقتصرت وخففت ، نعم وزعمت انك قدا كثرت عليّ فسئمتُ ، واطلت فتبرمتُ ، ولو شئت لقلت انك اردت تهجيني فبدأت بنفسك ، وتبجلي فتحاملت على فعلك ، اذ قد علم الناس خلاف ما حكيت ، ودروا اني بمناة مما ادعيت ، اوجب لمن ضمه اليّ السبب الضعيف ما يوجب للاخ المشابك في الارومة ، والمشارك في الخؤولة والعمومة ، واني لا الومك على الانقباض لوما يربني فعلك لوماً ، وبودي لو كلفت مع كل صباح نفس حاجات تعادّ الرمل ، وتناسب القطر ، فهذا هذا والقصتان قد وقّع فيهما بما رأيت . وان سألت في الالتماس بأمرّ من العلقم ، واضرّ من الارقم . وكل ذلك نـأتي به مقبول ، وعلى جانب الانس محمول ، لا عدمتك .

وكتب يصلح بين الاشراف العلوية بقزوين :

كتابي اطال الله بقاء الشريفين سيدي وكبيري عن سلامة مولانا الامير المؤيد الدولة وانتظام امور سلطانه، وعافيتي بدولته وعلو شانه، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خيرته محمد وعترته. وقد علم الشريفان ان الصلاح تجتمع اطرافه، وتحرس اكنافه، باطراح الضغائن، وتسوية الظواهر والبواطن، والاخذ بالخلق السمح، وترك المشاحة والشح. وان المعاركة تورث التباعد، وتزيل التعاون والترافد، والاشراف العلوية بقزوين بينهم وبين سائر الطوائف شحناء لا تكاد تسقط جمراتها، ولا تنجلي غمراتها، وقد كتبت في ذلك كتابا ارجوه يجمع على الالفة، ويحرس من الفرقة، وينظم على ترك المنازعة، والجنوح الى الموادعة، فان المهادنة تجمل بين المليين، فكيف بين النحلتين، والله نسأل توفيقا لانفسنا ولهم. واذا عرفت لما يجري من ذلك تأويلا وان كان ضعيفا فليت شعري لم بين آل ابي طالب ايدهم الله تماد وتباغض، وتناء وترافض، وشر قد تعدى الى اراقة الدم، وقطع العصم، ونسيان الذمم، وبيت الرسالة يجمعهم، وظل النبوة يكنفهم، ورحم الوصية تؤلفهم، وهل ذلك الا من حبائل الشيطان ومكائده، ونزغاته ومراصده، وقد اعتمدت

الشريفين لامرين عظيمين ، اولها واولاهما ، ازالة هذا التنازع والتقاطع ، بين بني العم حتى يكونوا متوازرين متعادلين ، اخوانا متقابلين ، وان احتاج بعض الى احتمال ضيم لبعض ، والتزام هضيمة وغض ، فالدين يقتضي ذلك اقتضاء لا رخصة في تركه ، ولا تأويل في حله ، ولا عذر في هجره ، وانا اتوقع ما يكون من هؤلاء الاشراف ايدهم الله في الاستجابة لما رسمت ، والتزام ما الزمت ، ومن الشريفين ايدهما الله في اصلاح ذات البين ، والصبر على ايقاع الاتفاق ، ورفع الافتراق ، واستعادة الائتلاف ، واماطة الاختلاف . ان شاء الله تعالى .

وكتب يعزي ابا عن ولده :

هو الدهر يا شيخي وكبيري فلا تعجب من طوارقه ، ولا تنكر هجوم بوائقه ، عطاؤه في ضمان الارتجاع ، وحباؤه في قران الانتزاع ، بينا يمنح المرء حتى يسلب ، وبينما يعطي حتى يحرب ، واللبيب يستشعر الفجيعة ، حين يؤتى الوديعة ، ويتمثل الفقدان ، ساعة يصافح الوجدان ، علماً بأن الله تعالى جعل الدار دار امتحان لا دار مقام . وبلغني من مضيّ الفتى قدّس الله روحه ، وبرّد ضريحه ، على حين املته لاحوال ،

ورجوته لكفاية واستقلال ، ما اجرى الدمع ، وأعظم الفجع ، ولم ادر أأتصور حاله وقد اختضر شبابه ، وتقطعت اسبابه ، ولم تغن عنه طراوته في العيون ، وحلاوته وعزه على العشيرة ، وكثرة الحامين له دون العظيمة ، فلا يملك عن روحه دفعاً ، ولا يستطيع للحتم رداً بنفسه ولا بذويه ؟ ام حالك وقد اخذ عن عينك قرتها ، وعن نفسك ثمرتها ، وعن دنياك حسنتها ، وعن مناك غايتهـا ؛ فلا القلق ينفع ، ولا الحيلة تدفع ، ولا الفدية تقبل ، ولا البلية تمهل ؟ وكل ذلك يزيد المؤمنين ايماناً ، والموقنين ايقاناً ، فيعلم أن الامر كله لمن يغلب ولا يغلب ، وكيف ما شاء يفعل ويقلب ، الا ان الارضى خليقة ، والاهدى طريقة ، من علم أن اللطيف الرؤوف لا يعطي الا إذا كان العطاء اربح ، ولا يأخذ الا اذا كان الأخذ اصلح . وابنك وان كان طهراً ، فقد عاد اجراً ، وان كان ذخراً ، فقد رجع ذخراً ؛ فأحسن العزاء واجمل الرجعى ، فما عند الله خير وابقى . واعلم ان الناس قبلك جمعوا فجزعوا ، وودهوا فدلهوا ، ثم لم يرد التسلب من مات ، ولم يرجع التهالك كل من فات ، فعادوا الى التسليم ، وفوضوا الى

القادر الحكيم . وان المرء ليقدم السلوة فيجبر مصابه ، كما يؤخرها فيحبط ثوابه . اخذ الله بك الى ما هو أولى بسنك ودينك ، وحسن عقيدتك ويقينك . أحب ان تعرفني خبرك في التفويض الى الله ، وحسن الرضا بقدر الله ، فان الرزء ما كان أفظع ، كان العوض أوسع ، وانت وان احتجت الى الاولاد ، فحاجتك العظمى الى حسن المعاد ، والله أسأل لك ولنفسي التوفيق والتسديد ، انه فعال لما يريد .

وله في باب التعازي :

ورد كتاب مولاي بذكر مضي فلان فوجدت نفسي كالمصاب بنجيب من أبنائه ، أو عزيز من أعضائه ، وورد على قلبي ما غشاه كربا يتعذر دواؤه ، ويتعسر جلاؤه ، فما أدري بعد هذا ما أكتب وما أقول ، وكيف يذم هذا الزمان الخؤون ولكني أنشد :

ما أعلم الدهر بمن أحب

وأردد :

هذا الزمان يسوؤني فجعاً بكل خليل
فكأنه يمضي الى ما ساءني بدليل

والله أسأل ان يطهرنا للقائه ، فكل لابد وارد هذا الحوض وان مد في اجله ، وأخر في مهله ، ونعوذ بالله من طول الآمال ، وقصر الآجال ، وشرور النفوس وسيئات الأعمال ، ورحم الله فلانا فلقــد كان قليل النظير في اشكاله ، بل عديم المثيل في امثاله ، وسأكتب الى فلان معزياً وان لم أجده أولى مني بالفجيعــة ، فاخاء المودة الخــاصة ، فوق الرحم الماسة .

وله يعاتب كاتباً تراجع في صناعته :

كنت ابتدأتك بالمخاطبة ، وحضضتك في آلات الكتابة على المداومة والمواظبة ، فأجــد خطك يزداد على الأيام ويستجاد ، ثم أهملت التعهد ، واستعملت التجوز ، وصار ما تكتبه مضطرب الحروف ، متضاعف الضعف والتحريف ، وجعلت أتأول لك يوماً بقلم لم يستجب بربه ، ويوماً بمداد لم يساعد جريه ، الى أن صار رداءة الخط سنة لك وسنناً ، ورسماً ثابتاً مرتهناً ، فقدمت هذا الخطاب مذكراً ، ورجوت ألا تحوج الى مثله منكرا ، وإياك وإياك اضطراري فثابر على المشق والتسويد ، واهتم بالتصحيح والتجويد ، واعمل

على ان تقوم حرفاً حرفاً من خطك ، وتصوره في نفسك قبل تصويره بيدك ، وليكن لك من يوقفك على مواضع التقصير والتضجيع ، لأتبين الزيادة فيما يرد منك وقتاً وقتاً ، قبل ان اوسعك تهجيناً ومقتاً والسلام .(١)

فصل من كتاب له الى ابن العميد صدر جواباً عن كتابه اليه في وصف البحر :

وصل كتاب الاستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة الآته للرياح كيف ارادتها ، واستجابة ادواتها لها متى نادتها ، وركوب الناس اثباجها ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين اخذ وترك ، والارواح بين نجاة وهلاك . اذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، واذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب اليهم الغرر .

وعرفت ماقاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته ، وحصولي على مساعدته ، ومن رأى بحر الاستاذ كيف يذخر بالفضل ، وتتلاطم فيه امواج الادب العلم ، لم يعتب على الدهر فيما بقيته

---

(١) آخر ما انتقيته من المختار من ديوان رسائل الصاحب المخطوط .

من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي اعظم من اكبار الاستاذ لاحواله ، واستعظامه لاهواله ، كما لا شيء ابلغ في مفاخره ، وانفس في جواهره ، من وصف الاستاذ له فاني قرأت منه الماء السلسال لا الزلزال ، والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علم انه كتب ولما يخطر بفكره ، سعة صدره ، فلو فعل لرأى البحر وشلا لا يفضل عن التبرض ، وثمداً لا يكثر عن الترشف .

وكم من جبال جبت تشهد انك الـ جبال وبحر شاهد انك البحر

وكتب تهنئة بزواج ام وتعزية بموت اب :

الايام — اطال الله بقائك — تجري على انحاء مختلفة ، وشعب متفرقة ، واحكامها تتفاوت بيننا بما يسوء ويسر ، وينفع ويضر ، وبلغني من نفوذ قضاء الله في شيخك رحمه الله ماازعجني ، وابهم طرق السلوة دوني ، وان كان من خلفك غير خارج عن مزية الاحياء ، ولا حاصل في زمرة الاموات ، والله يأسو كلمك ، ويسد ثلمك ، وقد فعل ذلك بان اتاح الله لك بعد ابيك اباً لا يقصر عنه شفقة عليك وحنوا ، وايثارا لك وبرا ، وقد لعمري وفقت حين وصلت بحبلك حبله ، واسكنت الكبيرة حرسها الله تعالى ظله ، لئلا تفقد من الماضي عفا الله عنه الا

شخصه . فالحمد لله الذي ارشدك لما يعيد الشمل مجتمعاً بعد فراقه ، والعدد موفوراً بعد انتقاصه ، حمداً يقضي لك بالمسرة ، ويحسم دونك مراد الوحشة ، و يلقيك ثواب ماقضيته من الحق ، وتحملته من الاوق [1] ، انه فعال لما يريد .

وكتب تهنئة ببنت :

اهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وام الابناء ، وجالبة الاصهار ، والاولاد الاطهار ، والمبشرة باخوة يتنافسون ، ونجباء يتلاحقون .

فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

فادّرع ياسيدي اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والارض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ؛ والسماء مؤنثة وقد تزينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة وهي قوام الابدان ، وملاك الحيوان ، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها ينعم المرسلون ، فهنيئاً هنيئاً

---

(١) الثقل

ما اوليت ، واوزعك الله شكر ما اعطيت ، واطال الله بقاءك ، ما عرف النسل والولد ، وما بقي الأبد ، وكما عمّر لبد .

وكتب الى ابي علي الحسن بن احمد في شأن ابي عبد الله محمد بن حامد :

كتابي هذا وقد ارخى الليل سدوله ، وسحب الظلام ذيوله ، ونحن على الرحيل غداً ان شاء الله اذا مد الصباح غرره قبل ان يسبغ حجوله ، ولولا ذاك لاطلته كوقوف الحجيج على المشاعر ، ولم اقتصر منه على زاد المسافر ، فان المتحمل له وسيع الحقوق لديّ ، حقيق ان اتعب له خاطري ويديّ ، وهو ابو عبد الله الحامدي اعزه الله تعالى كان وافانا مع ذلك الشيخ الشهيد ، ابي سعيد الشبيبي السعيد ، رفع الله منازله وقتل قاتله ، يكتب له فآنسنا بفضله ، وانسنا الخير من عقله ، فلما فجع بتلك الصحبة ، وبما كان له فيها من القربة ، لم يرض غير بابي مشرعاً ، وغير جنابي مرتعاً ، وقطع اليّ الطريق الشاق مؤكداً حقاً لا يشق غباره ، ولا ينسى على الزمان ذماره ، وكنت على جناح النهضة

التي لم يستقر نواها ، ولم تبن حصباها ، ولم تلق عصاها ، فاحرج الحر ، المبتدا الامر ، القريب العهد بوطأة الدهر ، حامل عليه بالمركب الوعر ، فرددته اليك ياسيدي لتسهل عليه حجابك ، وتمهد له جنابك ، وتترصد له عملا خفيف الثقل ، ندي الظل ، فاذا اتفق عرضته عليه ، ثم فوضته اليه ، وهو الى ان يتفق ذاك ضيفي وعليك قراه ، وعندك مربعه ومشتاه ، ويريد اشتغالاً بالعلم ليزيده في الاستقلال ، الى ان يأتيه ان شاء الله خبرنا في الاستقرار ، ثم له الخيار ، ان شاء اقام على ما وليته ، وان شاء لحق بنا ناشراً ما اوليته ، وقد وقعت له الى فلان بما يعينه على بعض الانتظار ، الى ان تختار له ايدك الله كل الاختيار ، فأوعز اليّ بتعجيله ، واكفني شغل القلب بهذا الحر الذي افردني بتأميله ، ان شاء الله تعالى .

وكتب الى القاضي أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني عند وروده باب الري وافداً عليه :

تحدثت الركاب بسير اروى الى بلد حططت به خيامي
فكدت أطير من شوقي اليها بقادمة كقادمة الحمام

أحق ما قيل من امر القادم ، ام ظن كأماني الحالم ؟ لا والله بل

هو دركُ العيان ، وانه ونيل المنى سيان . فمرحباً ايها القاضي براحلتك ورحلك ، بل اهلا بك وبكافة اهلك ، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من رياك ، فحث المطي تزل غلتي بسقياك ، وتزح علتي بلقياك ، ونص على يوم الوصول لنجعله عيداً مشرقاً ، ونتخذه موسماً ومعرّفاً ، ورد الغلام ، اسرع من رجع الكلام ، فقد امرته ان يطير على جناح نسر ، وان يترك الصبا في عقال واسر .

سقى الله دارات مررت بارضها   فأدتك نحوي يا زياد بن عامر
اصائل قرب ارتجي ان انالها   بلقياك قد زحزحن حر الهواجر

وكتب يذكر مصحفاً اهدي اليه :

البر ادام الله الشيخ انواع ، تطول به ابواع ، وتقصر عنه ابواع ، فان يكن فيها ما هو اكرم منصباً ، واشرف منسباً ، فتحفة الشيخ اذ اهدى مالا تشاكله النعم ، ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجز رسول الله صلى الله وسلم ودليله ، طبع دون معارضته على الشفاه ، وختم على الخواطر والافواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقي ما بقي الملوان ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ،

منير دليله ، عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد ؛ وفضائل القرآن ، لا تحصى في الف قران ٠ فاصف الخط الذي بهر الطرف ، وفاق الوصف ، وجمع صحة الاقسام ، وزاد في نخوة الاقلام ، بل اصفه بترك الوصف فاخباره آثاره ، وعينه فراره ، وحقاً اقول اني لا احسب احداً مـا خلا المـلوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع في استكتابها ما ابتدعت ، وان هذا المصحف لزائد على جميعهـا زيادة القرعة (١) على الغرة ، بل زيادة الحج على العمرة ٠

لقد اهديته علقاً نفيساً   وما يهدي النفيس سوى النفيس

وكتب الى ابي سعيد الشبيبي :

قد رأى شيخ الدولتين كيف الكلف بسادتي من اهـل ميكال ايدهم الله بين ود اضمره على البعد ، وايثار اظهره على تراخي المزار ، وتقريظ يمليه علي الملوان ، ومدح انطق فيـه بلسان الزمان ، حتى ان ذكرهم اذا جرى على لساني ، اهتزت له نفسي ، وفضلهم اذا جرى على سمعي ، انفرج له صدري ، فتلك عصبة خير فضلها باهر ، وشرفها على شرف النماء زاهر ، وشجرة

---

(١) لعله الفرع ٠

طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء ، والله يتمم اعدادهـا ، ولا يعدمني ودادها ؛ واذا كان اكباري لهم هذا الاكبار ، فكل منتسب الى جنبهم اثير لدي ، كثير في يدي ؛ وطرأ عليّ فلان منتسباً الى جملتهم ، وحبذا الجملة ، ومعتزيا الى خدمتهم ، ونعمت الخدمة ، ففررناه عن طبع سمح ، ولفظ عذب ، وصلة نثر بنظم ، فان شاء قال انا الوليد ، وان شاء قال انا عبد الحميد ، ولم اعظم بمن خرّجته تلك النعمة ، ونتجته تلك السدة ، ان يأخـذ من كل حسنة بعروة ، ويقدح في كل نار بجذوة ، وآنسنا بالمقـام مدة ، اكدتها شوافع عدة ، الى ان تذكر معاهد رأى فيهـا الدهر طلقاً والزمان غلاماً ، والفضل رهناً والافضال لزاماً ، فحنّ حنين الركاب ، وركب عزيم الاياب .

وكتب في وصف كتاب :

. . . . ومن هو الذي لا يحبه وهو علم الفضل ، وواسطة الدهر ، وقرارة الادب والعلم ، ومجمع الدراية والفهم ، ام من يرغب عن مكاثرة بمن ينسب الربيع الى خلقه ، ويكتسب محاسنه من طبعه ، ويتوشح بانواره ، ويتوضح بآثار لسانه ويده ، وصل كتابه ، فارتحت لعنوانه ، قبل عيانه ، حتى اذا فضضت

ختامه اقبلت الفقر تتكاثر ، والدرر تتناثر ، والغرر تتراكم ، والنكت تتزاحم ، فاذا حكمت للفظة بالسبق اتت اختها تتنافر ، واقبلت لديها تتفاخر ، حتى استعفيت من الحكومة ، ونفضت يدي من غبار الخصومة ، واخذت اقول كلكن صوادر عن اصل واحد فتسالمن ، وارفاد عن معدن رافد فتصالحن ، وقد وليت النظر بينها من كل لنسج برودهما ، ووفى بنظم عقودهما ؛ على انني يا مولاي أنشأت هذه الاحرف وحولي اعمال واشغال لا يسلم معها فكر ، ولا يسلم بينها طبع ، وتناولت قلما كالابن العاق ، بل العدو المشاق ، اذا اردته استقال ، واذا قومته مال ، واذا حثثته وقف ، واذا وقفته انحرف ، احدل [1] الشق ، متفاوت البري ، معدوم الجري ، محرف القط ، مشبج [2] الخط ؛ ثم رأيت العدول عنه ضربا من الانقياد لامره ، والانخراط في سلكه ، فجهدته على رغمه ، وكددته على صعره ؛ لاجرم ان جناية اللجاج بادية على صفحات الحروف لاتخفى ، وعادية المحك [3] لائحة على وجوه السطور تتجلى .

---

(١) الاحدل : المائل . (٢) المشبج : المعمى .

(٣) المحك : التمادي في اللجاج والغضب .

وكتب في معناه : والله يعلم اني أخبرت بورود كتابه واستفزني الفرح قبل روءيته ، وهز عطفي المرح امام مشاهدته ، فما ادري اسمعت بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شباب ؟ ثم وصل بعد انتظار له شديد ، وتطلع الى وصوله طويل عريض ، فتأملته فلم ادر ما تأملت أخطاً مسطوراً ، أم روضاً ممطوراً ، أم كلاماً منثوراً ، أم وشياً منشوراً ؟ ولم ادر ماأبصرت في اثنائه أأبيات شعر ، أم عقود در ؟ ولم ادر ماجملته أغيث حل بوادي ظمآن ، أم غوث سبق الى لهفان ؟ .

وكتب: وصل كتاب القاضي فاعظمت قدر النعمة في مطلعه ، واجللت محل الموهبة بموقعه ، وفضضته عن السحر حلالاً ، والماء زلالاً ، وسرحت الطرف منه في رياض رقت حواشيها ، وحللت تأنق واشيها ، فلم اتجاوز فصلاً الا الى أخطر منه فضلاً ، ولم اتخط سطراً الا الى أحسن منه نظماً ونثراً .

وكتب أيضاً : وصل كتابك فجعلت وصوله عيداً أورخ به ايام بهجتي ، وافتتح به مواقيت غبطتي ، وعرفت من خبر سلامتك ماسألت الله الكريم ان يصله بالدوام ، ويرفعه على أيدي الايام .

وكتب أيضاً : وصل كتابه ايده الله يضحك عن أخلاقه الارجة ، ويتهلل عن عشرته العطرة ، ويخبر عن عافية الله لمن رأيت شمل الحرية به منتظماً ، وشعب المروءة له ملتئماً ، ويحمل من انواع بره ، ما اقصر عن ذكره ، ولا أطمع في شكره ؟ ويؤدي من لطيف اعتذاره في اثناء عتبه ، ما تزداد أسباب المودة تمهيداً به ، وفهمته ورغبت الى الله باخلاص طوية ، وامحض نية .

وكتب الى حسام الدولة ابي العباس تاش الحاجب في القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني :

قد تقدم وصفي للقاضي ابي الحسن علي بن عبد العزيز ادام الله تعالى عزه فيما سبق الى حضرة الامير الجليل صاحب الجيش ادام الله تعالى علوه من كتبي ما اعلم اني لم او‌ٔد فيه بعض الحق ، وان كنت دللته على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن انه من افراد الدهر ، في كل قسم من اقسام الادب والعلم ، فأما موقعه مني فموقع تخطبه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب ، وعادته معي ان لا يفارقني مقيماوظاعناً ، ومسافراً وقاطناً ، واحتاج الآن ، الى مطالعة جرجان ، بعد ان شرطت عليه تصيير المقام

كالالمام ، فطالبني مكاتبتي بتعريف الامير مصدره ومورده فان عنّ له ما يحتاج الى عرضه وجد من شرف اسعافه ما هو المعتاد ليستعجل انكفاؤه اليّ بما يرسم ادام الله ايامه من مظاهرته على ما يقدم الرحيل ، و يفسح السبيل ، من بدرقة ان احتاج اليها والى الاستظهار بها ومخاطبة لبعض من في الطريق يتصرف النجح فيها . فان رأى الامير ان يجعل من حظوظي الجسيمة عنه تمهد القاضي ابي الحسن بما يعجل رده ، فاني ما غاب كالمضل الناشد ، واذا عاد كالغانم الواجد ، فعل ان شاء الله تعالى .

ووجه الصاحب ابا الحسن الجوهري الى ابي العباس الضبي باصبهان وزوده بهذا الكتاب :

اوصافي لمولاي ادام الله تعالى عزه تودع الشوق اليه حبات القلوب ، كما تملأ له بالمحبة اوساط الصدور ، فلا تغادر ذا قدح فائز في الفضل ، وخصل سابق في خصال العلم ، الا ونار الحنين حشو ثيابه او يرحل اليه ، و ينيخ ركائب السير لديه ، لا جرم ان جل من يحضرني يطالبني بالاذن له في قصده ، و يهتبل غرة الزمان في الحظوة بقربه ، نعم وذوو

التحصيل اذا حظوا لدي بزلفة ، واحصفوا عروة خدمة ، اعتقدوا انهم ان لم يعتمدوا ظله ، ولم يعتلقوا حبله ، كانوا كمن حج ولم يعتمر ، ودخل ظفار ولم يحمر ، الا ان جميعهم اذا دفعته اندفع ، واذا خدعته انخدع ، غير واحد ملط ، ملحف مشط ، يغريه الرد بالمراجعة ، ويغويه المنع للمعاودة ، ويقول بملء لسانه الى ان يسأم ، ويقتضي طول زمانه حتى يبرم ، وكم جررته على شوك المطل ، ونقلته من حزن الى سهل ، وصرفته على انجاز وعد بوعد ، ودفعته من استقبال شهر الى انسلاخ شهر ، ثم خوفته كلب الشتاء اجعل الربيع موعدا ، وحذرته وهج المصيف اعطيته للخريف موثقا ، وكم شغلته بعمالة بعد عمالة ، ووفادة بعد وفادة ، اريد في كل ان اصدفه عن وجهته ، واصده عن عزمته ، ليس لغرض اكثر من ان السؤال منه والدفاع مني تساجلا ، والالتماس منه والامتناع من جهتي تقابلا ، فلما خشيت صبابته باصبهان ان يردها بل بخدمة مولاي ان يعتقدها تجني على قلبه ، او يتحيف بمس من الجنون ثابت عقله ، القيت حبله على غاربه ، وبردت بالاذن جمرات جوانحه ، فان يقل مولاي من

ذا الذي هذا خطبه ، وهذه خطته ، اقل من فضله برهان حق ، وشعره لسان صدق ، ومن أطبق اهل جلدته ، على انه معجزة بلدته ، فلا يعد لجرجان بعيدا ولا قريبا او لاختها طبرستان قديما ولا حديثا مثله ، ومن اخذ برقاب النظم اخذه ، وملك رق القوافي ملكه ، ذاك على اقبال شبابه وريعان عمره ، وقبل ان تحدثه الآداب ، وقيل جري المذكيات غلاب ، ابو الحسن الجوهري ايده الله ونباؤه عند مولاي منذ حين ، وخصوصه بي كالصبح المبين ، الا ان لمشاهدة الحاضر ، ومعاينة الناظر ، مزية لا يستقصيها الخبر وان امتد نفسه ، وطال عنانه ومرسه ، وقد الف الى هذه الفضيلة التي فرع بنيها ، واوفى على ذوي التجربة والتقدمة فيها ، نفاذاً في آداب الخدمة ، ومعرفة بحق الندام والعشرة ، وقبولا يملأ به مجلس الحفلة انصاتا للمتبوع الا اذا وجب القول ، واعظاماً للمخدوم الا اذا خرج الامر ، وظرفاً يشحن مجلس الخلوة حديثاً يسكت به العنادب ويطاول البلابل . فان اتفق ان يفسح له في الفارسية نظماً ونثراً طفح اذيه ، وسال اتيه ، فالسنة اهل مصره الا الافراد بروق اذا وطئوا اعقاب العجم ، وقيود اذا

تعاطوا لغات العرب، حتى ان الاديب منهم المقدم، والعليم المسوم، يتلعثم اذا حاضر بمنطقه، كأنه لم يدر من عدنان، ولم يسمع من قحطان. ومن فضول اخينا او فضله انه يدعي الكتابة، ويدارس البلاغة، ويمارس الانشاء، ويهدي فيه ما شاء، وكنت اخرجته الى ناصر الدولة ابي الحسن محمد بن ابراهيم فوفق التوفيق كله صيانة لنفسه، وامانة في ودائع لسانه ويده، واظهاراً لنسك لم اعهده في مسكه، حتى خرج وسلم على نقده، وان نقده لشديد لمثله، ومولاي يجريه بحضرته مجراه بحضرتي، فطعامه ومنامه، وقعوده وقيامه، اما بين يديّ، او باقرب المجالس لديّ، ولا يقولن هذا اديب وشاعر، او وافد وزائر، بل يحسبه قد تخفف بين يديه اعواماً واحقاباً، وقضى في التصرف لديه صبى وشباباً، وهذا انما يحتاج الى وسيط وشفيع ما لم ينشر بزه، ولم يظهر طرزه، والا فيكون بعد شفيع من سواه، ووسيط من عداه، فهناك بحمد الله درقه وحدقه، ووجنة مطرفة (١) وما اكثر ما يفاخرنا بمناظر جرجان وصحاريها، ومفارقها وحواشيها، فليملأ مولاي عينه من منتزهات اصبهان فعسى طماحه ان يخف،

(١) لعله وجنة مطرقة او وجنة ومطرقة ٠

وجماحه ان يقل · وشريطة اخرى في بابه وهي انه ليس موضعاً لماله فسبيل ما يرزأه ان يكون ما اقام في حجره ، وان اذن له مولاي في العود داخلا في حظر ، فما اكثر ما يباري البرامكة تبرماً بجانب الجمع ، وتخرقاً في مذاهب البذل ، ونسبة للرياح الى الامساك والبخل ، فبينا تراه والثروة اقرب وصفيه ، حتى تلقاه والحاجة احد خصميه ، وكم وكم تداركت امره فما ازداد الخرق الا وسعاً لا يقبل رتقاً ، وتهاونا لا يسع تلافياً ، وما كنت مع ابرامه لافسح له في الخروج ، وامد له طول النهوض مع انسي الشديد بحضوره ، واستمتاع النفس بعقله وجنونه ، غير اني ازرته من ينظر بعيني ، ويسمع باذني ، ومن اذا ارتاح للامر فقد ارتحت ، واذا انشرح صدره فقد انشرحت · ونكتة اخرى وهي واسطة التاج ، وفاتحة الرتاج ، مولاي سمح بماله ، مقرب لمناله ، بخيل بجاهه ضنين بكلامه · وابو الحسن لا يقبل العذر ، او يصدق النذر ، فيجعل جوده بلسانه ، ابلغ من جوده ببنانه ، وحقاً اخبر ان قصده الاكثر الارتفاع لاالانتفاع غير اني انبأت عن مره ، وعن من بكره ·

وكتب الى ابي سعيد الاسماعيلي يصف قصيدة لابنه ابي معمر الاسماعيلي :

وبعد فهل اتاك حديث الاعجاب منا وقد طلعت من ارضك فقرة الفقر ، وغرة الغرر ، وحديقة الزهر ، وخليفة المطر ، تلك حسنة انتشرت عن ضوئك ، وغمامة نشأت بنوئك ، ونار قدحت بزندك ، وصفيحة فضل طبعت على نقدك . وانها لقصيدة ولدنا ابي معمر عمره الله تعالى ما اختار ، وعمر به الرباع والديار ، خطت باقدام الاجادة ، وقطعت مسافة الاصابة ، وسعت الى كعبة القبول ، وحلت حرم الامن خير الحلول ، تلبي وقد تعرت من لباس التعمل ، وتجردت عن عطاف التبذل ، فلم تدع منسكاً من البر الا قضته ، ولا مشعراً من الفضل الا عمرته ، ولا معرفاً من العلم الا شهدته ، ولا محصباً من الفهم الا حضرته . واجتمعنا حولها وانا لاعدادجمة ، وفينا واحد يقال انه امة ، كأنا عديد الموسم يعظمون الشعائر ، ويعلقون الستائر ، ويحتضنون الملتزم ، ويلثمون المستلم . وهذا الكتاب يرد عليكم بالخبر أسرع من اللمح البارق ، نعم ومن اللمع الخاطف ، واخف من سابق الحجيج وان كان المثل الاعلى لبيت الله

العتيق ، فاحمد الله اذ قرن فضل فناك بفضلك ، وجعل فرعك كأصلك ، وانبت غصنك على شجرك ، واشتق هلالك من قمرك ، وارك من ظهرك ، من يحذو على نجرك ، ويصل فخره بفخرك ، ويشيد من بناء الدراية ما اسست ، ويسقي من شجر الرواية ما غرست .

وكتب الى ابي العباس الضبي في ذكر ابي سعيد الرستمي :

كان يعد في جمع أصدقائنا باصبهان رجل ليس بشديد الاعتدال في خلقه ، ولا بارع الجمال في وجهه ، بل كان يروع بمحاسن شعره ، وسلامة وده . أما الشعر فقد غاض حتى غاظ ، وأما الود ففاض أو فاظ . فان تذكره مولاي بوصفه والا فليسأل عن خاله وعمه ، أما العمومة ففي آل رستم وثم الذروة والغارب ، ولؤي العجم وغالب ، وأما الخؤولة ففي آل جنيد ، كما قال شاعرهم في سعد وسعيد ، وقد سألت عن خبره وفد نجران ، والركب بجيلي نعمان ، فلم يذكروا الا أنه مشغول بخطبة سبطه ابي القاسم ابن بجر رحمه الله تعالى لفتاة اعزه الله وليس في ذلك ما يوجب ان يطوينا طي الرداء ، ويلقى عهدنا القاء الحذاء ، وقد يعود الصلاح فساداً ، ويرجع النفاق كساداً .

فلعل تيما ان تلاقي خطة   فتروم نصرا من بني العوام

قال الثعالبي سمعت ابا جعفر الطبري الطبيب المعروف بالبلادري يقول ان للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زادا عليها فسألته ان يعيرنيها ان كانت عنده فذكر انها في جملة ماغاب عنه من كتبه فاستغربت واستبعدت ما حكاه من تطبب الصاحب ونسبته في نفسي الى التزيد والتكثر الى ان ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها ابو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ورشاقة العبارة حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه وتدل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه وهذه نسختها واكثر ظني انه قد كتبها الى ابي العباس الضبي :

قد عرفت ما شرحه مولاي من امره ، وانبأ عنه من احوال جسمه ، فدلتني جملته على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية ؛ فاما الذي يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته ، فلامرين احدهما ان الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة ، وترجع العادة

السابقة ، والآخر ان المعدة اذا دامت عليها المطفيات ، ولزت بها المبردات ، قلت الشهوة وضعف الهضم ، ومع ذلك فلابد مما يطفي ويغذي ، ثم يمكن من بعد ان يتدارك ضعف المعدة بما يقوي منها ، ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل جالينوس : قدم علاج الاعم ثم عد واصلح ما افسدت . والاقراص في آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة واصلحت به العروق وقوي به الطحال ليتمكن من جذب العكر ، لا سيما والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها ، والبلدة التي وردها ، فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقياً من الفضول لما اثر هذا التأثير ، ولا طول هذا التطويل ، وانما اغتر مولاي بايام السلامة ، فكان يتبسط في انواع الطعام ، ويسرف في تناول الشراب فامتلأ الجسم من تلك الكيموسات الرديئة وورد بلداً شديد التحليل ، مضطرب الاهوية ، فوجدت النفس عوناً على حل ما انعقد ، ونقض ما اجتمع ، وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لان الجسد يخلص خلاص الابريز اذا زال عنه الخبث وسبك ففارقه الدرن .

واما الرعشة التي يتألم مولاي منها ، ويضيق صدراً بها ، فليست

والحمد لله محذورة العاقبة ، وانها لتزول باقبال العافية ، فالرعشة التي تتخوف هي التي تعرض من ضعف القوة الحيوانية كما تعرض للمشايخ وتؤذي لمشاركتها الدماغ كثيراً من العظام . فاما هذه التي تعتاد عقيب الحمى فهي على ما قال جالينوس من ان حدوثها يكون اذا شاركت العروق التي تحدث فيها علة العصب وتزول عنه بزوال الفضل . وعجب مولاي من نكرهه شم الفواكه ولا غرو اذا عرف السبب ، فان العفونة التي في العروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، فما يصل اليها من الروائح الزكية يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتكرهها ، ولا تقبلها وتأباها ولا تؤثرها ، ألا يرى مولاي ان الاشياء الحلوة في فم ذي الصفراء بطعم الاشياء المرة لاستيلاء المرارة ، المضادة للحلاوة على آلات الذوق والمضغ والادارة ، وهذا راجع الى مثل ما حكمنا به أولاً من ان هناك فضلاً لا يمكن الهجوم على تحليله لما يخشى من سقوط القوة وان كان مما لم يخرج لم يوثق بوفور الصحة . وانا احمد الله اذ ليست شهوة سيدي متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الاخلاط الفاسدة ، تغري صاحبها بالاكل الزائد ، وتعرض للمزاج الفاسد ، الا ان التغذي لا يجوز اهماله دفعة ،

والتبرم به ضربة ، فان البدن اذا احتاج اليه وجب للعليل ان يتناوله تناول الدواء الذي يصبر عليه ، وذلك ان في دقة الحمية ، وترك الرجوع اول فاول الى عادة الصحة امانة للشهوة ، وخيانة للقوة . وجالينوس يشرط في العلاجات اجمع استحفاظ القوى لان الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر الا ان ذلك بازاء ما قال الحكيم الاول بقراط في البدن السقيم انك متى مازدته غذاء زدته شراً ، وهو في نفسه يقول : ان الحمية التي في غاية الدقة ليست بمحمودة فالطرفان ، من الاسراف والاجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم . اغنى الله مولاي عن الطب والاطباء ، بالسلامة والشفاء .

وكتب الى ابي العلاء الاسدي :

يقر بعيني ان يلم رسولها بابي ويهدي بالعشي سلامها
ويذكرلي دون الرجال حديثها وينشر عندي نطقها وكلامها

ورد يا شيخي اطال بقاءك رسولك بكتاب سبق الافكار والظنون ، وحسدت عليه القلوب العيون ، وترك الواصفين بين قاصر ومقصر ، ومثل ليالينا بين الاوى فمحجر ، بكلام كالورق

النضير تتأوه [١] منه الغصون ، وكالنور المنير افنانه فنون ، فصادفني حليفاً للشوق أو رهيناً ، وحنينا على الحنين وساء قرينا ، وكيف لا وقد الفنا القرب احوالا حولنا رياض الادب ترف ، ودوننا رواحل الفضل تزف ، نملك رقاب المنطق ، ونتنازع اطراف الكلام المنمق ، ونقطع الليالي تناشداً وتذاكراً ، وتحادثاً وتسامراً ، الى ان يخلع الظلام ثيابه ، ويحدر الصباح نقابه ، هذا دأبنا كان الى ان جاوزنا الشباب مراحل ، ووردنا من المشيب مناهل ، ثم حان الفراق فنحن حتى اليوم منه في جو كدر ، ونجم منكدر ، يقبضنا عن الموارد العذاب ، ويعرضنا على لواعج العذاب ، والله نسأل اعادة هاتيك الاحوال ، وتلك الايام الخضراء الظلال . وان كان الله قد زادنا بعدك مناجح ومنائح ، وايادي غوادي وروائح ، حتى فتحنا الفتوح ، وذللنا القروح ، ورتقنا الفتوق ، ونسخنا الفروق ، واثرنا الآثار ، ووطأنا الرقاب وطلبنا الثار ، واصطنعنا الصنائع ، وجعلنا ودائع النعم قطائع ، وعقدنا في أعناق الاحرار مننا ، أحسن من سبل الاحسان سننا . انا قد تحملنا مشاقاً مالت على القوة للضعف ،

---

(١) كذا في معجم الادباء ولعل الصواب تتأود .

وتحاملت على الاشر بالوهن ، ودفعت الى معالجة خطوب تعجب الدهر من صبرنا عليها نخار ، وجبن الزمان عند شجاعتنا لها الخار . وها انا أحوج ما كنت الى ان ارفه ، ولا استكره ، وقد رميت بسهم الاربعين ، وارميت على شرف الخمسين ، مدفوع الاشغال والانقال الى متاعب ومصاعب لومني بها ابن ثلاثين قويا ازره طريا حرصه لقام عجزه وقعدت به نفسه واظنني كنت قديما قلت :

وقائلة لم عرتك الهموم　　وامرك ممتثل في الامم
فقلت دعيني وما قدعرى　　فـان الهموم بقدر الهمم

وما على الراحة آسف بل على الا اكون مشغولاً باخرى امهد لها واكدح ، وادأب لنفسي وانصح ، اللهم وفق وقدر ، وسهل ويسر ، انك على ما تشاء قدير .

وكتب اليه أيضاً :

ابا العلاء شيخي اين ذلك الميعاد ، واين تلك العهود سقتها العهاد ، واين ليالينا بجزوى ، وتصابينا على اروى ، بل ابن الصبا وما ملك ، واين الشباب واية سلك ؟ واذ قد غاب جميع ذلك مغيب الخيال الطارق ، والضيف المفارق ، فاين كتبك التي هي الذ من انتهاء النفس الى رجائها ، وابتداء العين في اغفائها .

وكتب في اهداء اترجه : ما زلت يا سيدي افكر في تحفة تجمع اوصاف معشوق وعاشق ، وتنتظم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت باترجة كأن لونها لوني وقد منيت ببعدك ، وبليت بصدك ، وكأن عرفها مستعار من عرفك ، وظرفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا اسميه ، وانا افديه ، فانفذتها وقلت :

مولاي قد جاءتك اترجة　　　من بعض اخلاقك مخلوقه
البسها صانعها حلة　　　من سرق اصفر مسروقه

وكتب في اهداء اقلام : قد خدمت دواة مولاي باقلام تخفف بانامله ، وتحمل نفحات فواضله ، وتأنقت في بريها فاتت كمناقير الحمام ، واعتدال السهام ، خمسة منها مصرية مقومة ، عليها حلل مسهمة ، وعشرة منها بيض كايادية ، وايام مؤملية ، والله يديم له مواد نعمته ، ويوفقني لشرائط خدمته .

وله من كتاب تعزية : وقلنا قد اخذ الزمان من اخذ ، وترك من ترك ، فهو لا شك يعفو عن القمر ، وقد اسلم الشمس للطفل ، ولا يصل الصروف بالصروف ، ولا يجمع الكسوف الى الخسوف ، فابى حكم الملوين ، وقد غبنك

اذ قاسمك الاخوين ، الا ان يعود فيلحق الباقي بالفاني ، والغابر بالماضي :

وعاد في طلب المتروك تاركه ... انا لنغفل والايام في الطلب
ما كان اقصر وقتاً كان بينهما ... كأنه الوقت بين الورد والقرب

اقول هذا كعادة المصدور في النفث ، وشكوى الحزن والبث ، والا فما يعجب السفر من تقدم بعض ، وكل بين الراحلة والرحل ، لا يترك الموت ساعياً على وجه الارض ، حتى ينقله الى بطن الترب :

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه
تبخل ايدينا بارواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الارواح من جوه ... وهذه الاجسام من تربه

***

رقاع له في الاستزارة والوصف

١

هذا اليوم يا سيدي طاروني ، يعجبني نوؤه الفاختي ، واذ قد غابت شمس السماء عنا ، فلا بد ان تدنو شمس الارض منا ، فان نشطت للحضور ، شاركتنا في السرور ، والا فلا اكراه

ولا اجبار ، ولك متى شئت الاختيار ٠

٢

غداً يا سيدي بنحسر الصيام ، وتطيب المدام ، فلا بد من ان نقيم اسواق الانس نافقة ، وننشر اعلام السرور خافقة ، فبالفتوة فانها قسم للظراف ، بغرض حسن الاسعاف ، لما بادرتها ولو على جناح الرياح ان شاء الله تعالى ٠

٣

نحن يا سيدي في مجلس غني الأعنك ، شاكر الامنك ، قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الاترج ، وفتقت فارات النارنج ، وانطلقت السنة العيدان ، وقام خطباء الاوتار ، وهبت رياح الاقداح ، ونفقت سوق الانس ، وقام منادي الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الند ، فبحياتي لما حضرت ، لنحصل بك في جنة الخلد ، ونتصل الواسطة بالعقد ٠

٤

نحن وحياتك في مجلس راحه ياقوت ، ونوره در ،

ونارنجه ذهب ، ونرجسه دينار ودرهم ، يحملها زبرجـد ، والسنة العيدان تخـاطب الظراف ، بهلم الى الاقـداح ، لـكنا بغيبتك كعقد غيبت واسطته ، وشباب اخذت جدته ، فاحب ان تـكون الينا اسرع من المـاء في انحداره ، والقمر في مداره ·

٥

مجلسنا يا سيدي مفتقر اليك ، معول في اغنائه عليك ، قـد ابت راحه ان تصفو الآن تتناولها يمناك ، واقسم غناؤه لا طاب او تعيه اذناك ، فاما خدود نارنجه فقد احمرت خجلاً لابطائك ، وعيون نرجسه فقد حدقت تأميلاً للقائك : فبحياتي عليك لمـا تعجلت ، لئلا يخبث من يومي ما طاب ، ويعود من همي ما طار ·

٦

صرنا ايد الله مولانا في بستان كأنه من خلقه خلق ، ومن خلقه سرق ، فرأينا اشجاراً تتميل فتذكر بترنح الاحباب ، وقد تداولتهم ايدي الشراب ، وانهاراً كأنها من يد مولانا تسيل ، او من راحته تفيض ، وحضرنا فلان فعلا نجمنا ، وحمد امرنا ، وتسهل طريق الخير لنا ، فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرء

في السقم ، والنار في الفحم ، رأى ان نجعل انسنا غداً عنـده فقلت سمعاً ، ولم استجز لامره دفعاً ، والتمس ان اخلفه في تجشيم مولاي الى المجمع ليقرب علينا متناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بمطالعته ، فان راى ان يشفعني اسعفني ان شاء الله تعالى ·

٧

انا على طرف بستان اذكرني ورده المتفتح بخلقك ، وجدوله السايح بطبعك ، وزهره الجني بقربك ·

٨

علقت هذه الاحرف وانا على حافة حوض ذي ماء ازرق كصفاء ودي لك ، ورقة قولي في عتابك ، ولو رأيته لانسيت احواض مارب ، ومشارب ام غالب ، وقد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقي ذماؤها ، وسامتني اشجار كأن الحور اعارتها اثوابهـا ، وكستها ابرادهـا ، وحضرتني نارنجات ككرات من سفن ذهبت ، او ثدي ابـكار خلقت وقد تبرم بي الحاضرون لطول الكتـاب فوقفت ، وكففت وصدفت ، عن كثير من مما له تشوقت ·

٩

مضيت فشاهدت احسن منظر ، فالارض زمردة، والاشجار وشي ، والماء سيوف ، والطير قيان .

١٠

كتب الى بعض ندمائه في يوم ثلج: كتبت والدنيا كافورة والدر نثير ، والكؤوس تدور ، والراح ياقوت احمر ، ونحن بين اطباق البرد في ما نستغيث منه الى حر الراح ، بسورة الاقداح ، وهي خير من كل شعر ووبر .

***

فصول له ورقاع في الملاطفة والمداعبة

كتب في الاعتذار من هفوة الكأس : سيدي اعرف باحكام المروءة من ان يهدى اليها ، واحرص على عمارة سبل الفتوة من ان يحض عليها ، وقديماً حملت اوزار السكر ، على ظهور الخمر ، وطوي بساط الشراب ، على ما فيه من خطأ وصواب ، وكنت البارحة بعقب شكاة اضعفتني ، ونقلتني عن عادتي ، واستعفيت السقاة غير دفعة فابوا الا الحاحاً علي ، وانزاعاً الي ، وكرهت الامتناع خشية ان اوقع الكساد في سوق

الانس ، وتفاديا من ان يعقد عليّ خنصر الثقيل ، فلما بلغت الحد الذي يوجب الحد ، بدر مني ما يبدر ممن لا يصحبه لبه ، ولا يساعده عقله وقلبه ، ولا غرو فموالاة الارطال ، تدع الشيوخ كالاطفال ، فان رأى ان يقبل عذري ، فيما جناه سكري ، ويهب جرمي ، لمعرفته نيتي في صحوي . وان ابى الا معاقبتي جعلها قسمين بين المدام و بيني فعل ان شاء الله تعالى .

وكتب مداعباً : خبر سيدي عندي وان كتمه عني ، واستأثر به دوني ، وقد عرفت خبره البارحة في شربه وانسه ، وغناء الضيف الطارق وعرسه ، « وكان ما كان مما لست اذكره » ، وجرى ما جرى مما لست انشره ، واقول ان مولاي امتطى الاشهب فكيف وجد ظهره ، وركب الطيار فكيف شاهد جريه ، وهل سلم على حزونة الطريق ، وكيف تصرف اني سعة ام ضيق ، وهل افرد الحج ام تمتع بالعمرة ، وقال في الحملة بالكرة ؟ ليتفضل بتعريفي الخبر فما ينفعه الانكار ، ولا يغني عنه الا الاقرار ، وارجو ان يساعدنا الشيخ ابو مرة ، كما ساعده مرة ، فنصلي للقبلة التي صلى اليها ، ونتمكن من الدرجة التي خطب عليها ، هذا وله فضل السبق الى ذلك الميدان ، الكثير الفرسان .

وكتب أيضاً : انفردت يا سيدي بتلك انفراد من يحسب مطلع الشمس من وجهها ، ومنبت الدر من فمها ، وملقط الورد من خدها ، ومنبع السحر من طرفها ، وحقاق العاج من ثديها ، ومبادي الليل من شعرها ، ومغرس الغصن في قدها ، ومهيل الرمل في ردفها . وكلا فانها شوهاء ور هاء ، خرقاء خلقاء ، كأنما محياها ايام المصايب ، وليالي النوايب ، وكأنما قربها فقد الحبائب ، وسوء العواقب ، وكأنما وصلها عدم الحياة ، وموت الفجاة ، وكأنما هجرها قوة المنة ، وكأنما فقدها ريح الجنة .

ومن كتاب له في المداعبة : الله الله في اخيك لاتظهر كتابه فيحكم عليه بالماليخوليا وبالتخاييل الفاسدة فقد ذكر جالينوس ان قوماً يبلغ بهم سوء التخييل ان يقدروا اجسامهم زجاجاً فيتجنبوا ملامسة الحيطان خشية ان يتكسروا ، وحكى ان قوماً يظنون انفسهم طيوراً فلا يغتذون الا القرطم . والحظ كتابي دفعة ثم مزقه فلا طائل فيه ، ولا عائد له ، ولا فرج عنده . وعلى ذكر الفرج فقد كانت بهمذان شاعرة مجيدة تعرف بالحنظلية وخطبها ابو علي كاتب بكر فلما الح عليها والحف كتبت اليه :

. . . .

. . . .

هذه والله في هذين البيتين اشعر من كبشة ام عمرو ، والخنساء اخت صخر ، ومن كعوب الهذلية ، وليلى الاخيلية .

وكتب الى ابي العلاء الاسدي : ذكرت ان ادهمك قطع الدهر رباطه ، او قطع الموت نياطه ، ووصفت الحمار الذي استعضته ، فلا ادري افرطته ام عضضته ، وقد كتبت بابتياع مركوب لك يعبوب ، او يعسوب او مرجوب ، بل رسمت ان يقاد اليك في كيس اعجر ، فان شئت فاتركه عندك اشهب والاً فابتع به ادهم او اشقر ، والتوقيع درج كتابي فليوصل والنقد عند الحافر ، وبه يملك الخف والحافر ، ويجنب الاغر السائر ، والاقرح النادر .

وله من كتاب في الغضائري : الغضائري وما ادراك ما الغضائري ، استزاد الى الجمال جمالاً ، وعاد بدراً وكان هلالا ، فان شئت فالغصن ميالا ، وان شئت فالدعص منهالا ،

كأن جميع الناس يلقون وجهه بناظرك المفتون والحب شامل
رويدك ان احببت فالغصن مائل وان تصب بعد الدعص فالدعص هائل

وهو يهدي اليك سلاماً كرقة خده ، ونسيم عرفه وغزارة دمعك من بعده :

سلاماً كما رق النسيم على الصبا

وجاء رسول الورد في زمن الورد

تأبى ايها الشيخ الصالح ، الاّ ان تغمسنا معك في مزح المازح :

الا رب ذي مزح يحرك حبله وحبل التقى من قلبه محصد شزر

(فصل) وما الشأن الاّ في انك تتنقل في الهوى تنقل الافياء ، وتميل في الحب كشارب الصهباء ، فمرة الغضائري حتى اذا حسبناك قد صرت له وصار لك ، وعلق بك واملّه املك ، بعت قديماً بحديث ، وتليداً بطريف ، واستهوتك حبائل القمي فقمت تفتل في حبله ، وتحرص على وصله ، ثم تطمع ان تضم ضداً الى ضد ، وتجمع سيفين في غمد ، وهيهات ان الغضائري قد بلغه ذلك فازورّ وتنمر ، وغار وتنكر ، وقد كان له عزم في المسير الى اصبهان ففتر بفتور صبوتك ، وخف بظهور نبوتك :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الاول

وقد جعله بعض الشعراء للحبيب الاخر واما نحن فننشد لكثير :

اذا ما ارادت خلة ان تزيلنا ... اَبينا وقلنا الحاجبية اول

والله يسقي عهدك صوب العهاد ، ويمدينا واياك على البعاد .

* * *

فقر من كلامه تجري مجرى الأمثال

من استماح البحر العذب، استخرج اللؤلؤ الرطب

من طالت يده بالمواهب ، امتدت اليه السنة المطالب

من كفر النعمة ، استوجب النقمة .

من نبت لحمه على الحرام ، لم يحصده غير الحسام .

من غرته ايام السلامة ، حدثته السن الندامة .

من لم يهزه يسير الاشارة ، لم ينفعه كثير العبارة .

رب لطائف اقوال ، تنوب عن وظائف اموال .

الصدر يطفح بما جمعه ، وكل اناء مؤد ما اودعه .

اللبيب تكفيه اللمحه ، وتغنيه اللحظة عن اللفظة .

الشمس قد تغيب ثم تشرق ، والروض قد يذبل ثم يورق ،

والبدر يأفل ثم يطلع ، والسيف ينبو ثم يقطع .

العلم بالتذاكر ، والجهل بالتناكر .

اذا تكرر الكلام على السمع ، تقرر في القلب .

الضمائر الصحاح . ابلغ من الالسنة الفصاح .

الشيء يحسن في ابانه ، كما ان الثمر يستطاب في اوانه .

الآمال ممدودة ، والعواري مردودة .

الذكرى ناجعة ، وكما قال الله تعالى نافعة .

متن السيف لين ، ولكن حده خشن ، ومتن الحية الين ، ونابها اخشن .

عقد المنن في الرقاب ، لا يبلغ الا بركوب الصعاب .

بعض الحلم مذلة ، وبعض الاستقامة مزلة .

كتاب المرء عنوان عقله ، بل عيار قدره ولسان فضله ، بل ميزان علمه .

انجاز الوعد ، من دلائل المجد ، واعتراض المطل ، من امارات البخل ، وتأخير الاسعاف ، من قرائن الاخلاف .

خير البر ما صفا وضفا ، وشره ما تأخر وتكدر .

فراسة الكرم لا تبطي ، وقيافة الشرف لا تخطي .

قد ينبح الكلب القمر ، فليلقم النابح الحجر .

كم متورط في عثار ، رجاء ان يدرك بثار .

بعض الوعد كنقع الشراب ، وبعضه كلمع السراب .

قد يبلغ الكلام ، حيث تقصر السهام .

ربما كان الاقرار بالقصور ، انطق من لسان الشكور .

ربما كان الامساك عن الاطالة ، اوضح في الابانة والدلالة .

لكل امرئ امل ، ولكل وقت عمل .

ان نفع القول الجميل ، والا نفع السيف الصقيل .

شجاع ولا كعمرو ، ومندوب ولا كصخر .

لا يذهبن عليك تفاوت ما بين الشيوخ والاحداث ، والنسور والبغاث .

كفران النعم ، عنوان النقم .

جحد الصنائع ، داعية القوارع .

تلقي الاحسان بالجحود ، تعريض للشرود .

قد يقوى الضعيف ، ويصحو النزيف ، ويستقيم المائد ، ويستيقظ الماجد .

للصدر نفثة اذا احرج ، وللمرء بثة اذا احوج .

ما كل امرئ يستجيب للمراد ، ويطيع يد الارتياد .

قد يصلى البريء بالسقيم ، ويؤخذ البر بالاثيم .

ما كل طالب حق يعطاه ، ولا كل شائم مزن يسقاه .

ان الاحداث لا رياضه لهم بتدبير الحوادث .

ان السنين تغير السنن .

من ثقلت عليه النعمة خف وزنه ، ومن استمرت به الغرة طال حزنه

اطع سلطان النهى ، دون شيطان الهوى .

اعلم الملوك يحتاج الى وزير ، واشجع الناس يحتاج الى سلاح ، واجود الخيل يحتاج الى سوط ، واجود الشفار يحتاج الى مسن .

مثل الملك الصالح اذا كان وزيره فاسداً كالماء الصافي النمير العذب الذي فيه التماسيح فلا يستطيع الانسان وروده وان كان سابحاً والى الماء ظامئاً حذراً على نفسه .

اذا ادبر الامر كان العطب في الحيلة .

احسن ما يكون الحسن بجنب القبيح .

ثلاثة تدل على عقول اربابها الهدية والكتاب والرسول .

ما احد رأى في ولده ما يحب الا رأى في نفسه ما يكره .

الصبر على حقوق الثروة اشد من الصبر على الم الحاجة ٠

الرزق مقسوم، والحريص محروم ، والحسود مغموم ، والبخيل مذموم ٠

اذا كان الايجاز كافياً ، كان الاكثار عيا ، واذا كان الايجاز مقصراً ، كان الاكثار ابلغ .

الخراج عمود الملك وما استقبل بمثل العدل ، وما استدبر بمثل الجور ٠

اذا لم اعط الا مستحقاً ، فكأني اعطيت غريماً ٠

مثل الكاتب مثل الدولاب اذا تعطل تكسر ٠

القلم الرديء كالولد العاق ، وكالاخ المشاق ٠

التصرف اعلى واسنى ، والتعلل اعفى واصفى .

ذل العزل يضحك من تيه الولاية .

الولاية وكل مدح ، والعزل وكل ذم ٠

موت في عز خير من حياة في ذل ٠

الحرب سجال ، وعثراتها لا تقال ٠

المكيدة ابلغ من النجدة ، والكيد ابلغ من الايد ٠

المكر حيلة من لا حيلة له ٠

السلاح ثم الكفاح ·

السلاح زينة وعدة ·

السلاح جنة الابدان ووقاية الانفس ·

قد يجبن الشجاع بلا سلاح ، ويشجع الجبان بالسلاح ·

لا تمنع عدوك السبيل في هزيمته ·

احتل للشمس والريح ان تكونا معك لا عليك ·

اذا ابتليت بالبيات فعليك بالثبات ·

محرض خير من الف مقاتل ·

الليل جنة الهارب ·

الفرار في وقته ظفر ·

الحرب اولها كلام ، وآخرها اصطلام ·

ان الجبان حتفه من فوقه ·

عصا الجبان اطول ·

القلم احد اللسانين ·

عقول الرجال تحت اسنة اقلامهم ·

صورة الخط في الابصار سواد وفي البصائر بياض ·

رداءة الخط زمانة الادب ·

القلم صائغ الكلام يفرغ ما يجمعه القلب ، ويصوغ ما يمسكه اللب .

الصاحي بين السكرى ، كالحي بين الموتى ، يضحك من عقلهم ، ويأكل من نقلهم .

احمق ما يكون السكران اذا تعاقل .

من طلب الري من الفرات لم يخش الظمأ في ورده ، ومن قصد الكريم برجائه لم يحاذر الخيبة في قصده .

من لم يتحرز من المكايد قبل هجومها ، لم يعنه الاسف عند وقوعها .

الناس بالذم اعلق ، وروائحه بالحفظ اعبق .

الاعتدال اعدل ، والطريق الوسط امثل .

الرأي اقومه احكمه ، واشده اسده .

رب اجتهاد ، ابلغ من جهاد ، ومكايد دقيقة المسارب ، انكى من حداد صقيلة المضارب ، ولطائف اقوال ، تنوب عن وظائف اموال ، وثبات عقول وعقود ، اوقع من بيات جيوش وجنود .

غش الكافي احمد من نصح الناقص .

الثناء الجميل لسان المساعي ، والبشر الحسن عنوان المعالي .

الاحجام في مواطنه كالاقدام في مواضعه ، والترك في اماكنه كالاخذ في مواضعه .

الراحة حيث تعب الكرام اودع ، لكنها اوضع ، والقعود حيث قام الاحرار اسهل ، لكنه اسفل .

اللبيب من الايماء يكفيه ، والايحاء يغنيه ، واللفظة تجزيه ، واللمحة تؤثر فيه .

السيد لا يروع القطيع بارضه ، والاسد لا يعدو على الفريسة في ظله .

الوقوف في مدارج التهم ذنب عظيم ، والدخول في شبهاب الظن داء عقيم .

الطاعة سعيدة المطلع ، حميدة المرجع ، والعصيان ذميم الفاتحة ، وخيم العاقبة .

الثعالب لا تجسر على اخياس الاسود ، والارانب لا تقدم على اغيال الليوث .

ان الجبال الشم ، والاطواد الصم ، لا تمال بحصبات القاذف ، ولا تحال بجمرات الحاذف .

الرجل الحوّل من ثنى ازمة الاعداء عن الشحناء ، الى

المودة والصفــاء ، لا من احال الصديق ذا الاخاء ، الى حال الهجرة والبغضاء .

الاغفال لا تؤمن عواقبه ، بل تحذر مصايبه .

تجارة الافضال رابحة ، وصفقة الاحسان راجحة .

الشمس تحيي نوراً ، ولكنها تقتل حراً ، والماء يروي ، وقد يفيض فيردي .

خير الوعظ ماقضى بالارتداع ، قبل الايقاع ، وبالانزجار ، قبل الانكار .

اصطناع الاراذل ، وصمة في وجوه الافاضل .

لا بد للسرى على قمر ، وللربى من مطر .

هل يثبت التصنع الا بقــدر الاستكشاف ، ويستقر التعمل الاريث الاستشفاف .

لــكل امر اجل ، ولــكل وقت رجل .

عريسة الاسد ، ليست من اماكن النقد .

ما انتفع بعلم رجل لم ينتفع بظنه ، ولا بفهم امرئ لم يصب بوهمه .

طلوع الشمس في ضمان غروبها ، ومكاره الايام ســيف

اعقاب محبوبها ، وعواري الليالي على شرف ارتجاعها ، وودائع الدهر بعرض انتزاعها.

المكاتبة نظام الصلة ، وقوام المقة ، وملاك المسرة ، وعماد المبرة .

دقيق علم النجوم لا يدرك ، وجليله كثير الكذب .

***

ملح وطرف من الفاظه

اخبرني عن سفرتك ، وعما حصل بها في سفرتك .

وجدت حراً يشبه قلب الصب ، و يذيب دماغ الضب .

انوب فيه نيابة الوكيل المكترى ، بل المملوك المشترى .

قد تحملت مع يسير الفرقة ، عظيم الحرقة ، ومع قليل البعد ، كثير الوجد .

عليّ أن اقول ، وما عليّ القبول .

لا اعترض بين الشمس والقمر ، والروض والمطر .

أ كره أن أملّ ، وقد قصدت أن أجلّ . وأعق ، وقد قصدت أن اقضي بالحق .

مرحباً بزائر لباسه حرير ، وانفـاسه عبير ، زائر وجهه وسيم ، وريحه نسيم ، وفضله جسيم .

فلان بين سكري الشباب والشراب .

غصن طلعه نضير ، وليس له نظير .

خط أحسن من عطفـات الاصداغ ، وبلاغة كالامل آذن بالبلاغ .

فقر كما جيدت الرياض ، وفصول كما تغازلت المقل المراض .

الفاظ كما نوّرت الاشجار ، ومعان كما تنفست الاسحار .

نثر كنثر الورد ، ونظم كنظم العقد .

كتابك رقية القلب السليم ، وغرة العيش البهيم .

كلام يدخل على الاذن ، بلا اذن .

فلان كريم ملء لباسه ، موفق مدّ أنفاسه ذو جد كعلو الجد ، وهزل كحديقة الورد ، عشرته الطف من نسيم الشمال ، على اديم الماء الزلال ، والصق بالقلب ، من علائق الحب .

شكره شكر الاسير لمن اطلقه ، والمملوك لمن اعتقه .

اثنى عليه ثناء العطشان الوارد ، على الزلال البارد .

قلب نغل ، وصدر دغل

وعده برق خلّب ، وروغان ثعلب .

فلان يتعلق باذيال المعاذير ، ويحيل على ذنوب المقادير .

وأما شيخنا ابو القاسم الزعفراني ايده الله فصورته لديّ صورة الاخ ، أو وده ارسخ ، ومحله محل العم ، او اشتراكه اعم .

وأما قصيدة ابي طاهر بن ابي الربيع ، فاحسن من الربيع ، وانها وثيقة الجزالة ، انيقة الاصالة ، تنطق عن ادب مهد الاسر ، شديد الازر ، وله عندنا اسلاف بر ارجو ان لا تبقى في ذمتنا حتى نقضيها ، فوعد الكريم ، الزم من دين الغريم .

خط أبي الفرج يبهر الطرف ، ويفوت الوصف ، ويجمع صحة الاقسام ، و يزيد في نخوة الاقلام .

فلان اثقل من القدح الاول .

هما خليطان من ماء الغمامة والخمر .

دارك لي جنة ولكن بوابها مالك الجحيم .

وطيء النجم بقدمه ، وسبق القدر بتقدمه .

نشط مولانا لتناول مايستمد الانس ، و يستجلب البشر ، و يشرح الصدر .

ما يجمع شمل الاخوان ، ويفرق نوازع الاحزان «يكنى بذلك عن اللهو والشراب»

النثر يتطاير تطاير الشرر ، والنظم يبقى كالنقش في الحجر .

ريق العذول سم قاتل .

نبيذ الكاس ، يعرك اذن الوسواس .

رب عذول في ظاهر اهل السمت ، وباطن اهل السبت .

الخمر صابون الهم .

الراح كيمياء الافراح .

دماء الكرم للرجل الكريم .

وقال في عبد الصمد بن بابك : واما ابن بابك ، وكثرة غشيانه بابك ، فانما تغشى منازل الكرام ، والمنهل العذب كثير الزحام .

خط كالمقل المراض ، والاقبال بعد الاعراض .

الفاظ ، كغمزات الالحاظ ، ومعان ، كانها قلب عان ، استعارت حلاوة العتاب ، بين الاحباب ، واسترقت تشاكي العشاق ، يوم الفراق .

الفاظ لها من الهواء رقته ، ومن الماء سلاسته ، ومن السحر نفثته ، ومن الشهد حلاوته .

كلام كبرد الشباب ، وبرد الشراب

كلام يهدي الى القلوب روح الوصال ، ويهب على النفوس هبوب الشمال ·

الفاظ حسبتها لرقتها منسوخة من صحيفة الصبى ، وظننتها لسلاستها مكتوبة من املاء الهوى ·

كلام كما هب نسيم السحر ، على صفحات الزهر ، ولذة طعم الكرى بعد نزح السهر ·

كلام يقطر صرفاً ، ويمزج الراح لطفاً · كلام كنسيم الصبا ، وعهد الصبى ·

كلام هو سمر ، بلا سهر ، وصفو بلا كدر ·

كتاب اوجب من الاعتداد ، واوفر من الاعداد ، واودع بياض الوداد ، سواد الفؤاد ·

كتاب انساني سماع الاغاني ، من مطربات الغواني ·

كتاب رأيت فيه ساعة الاوبة على المسافر ، وبرد الليل على المسامر ·

كتاب شممته شم الولد · والصقته بالقلب والكبد ·

كتاب مطلعه مطلع اهلة الاعياد ، وموقعه نيل المراد ·

وقال في شعر عضد الدولة : قرأت الابيات التي اسفر عنها طبع المجد والقاها بحر العلم على لسان الفضل ، فعلمت كيف تتكسر الزهر على الحدائق ، وكيف يغرس الدو في أرض المهارق.

تذكرت اياماً فتذكرت سحراً وسيماً ، وعيشاً جسيماً ، وراحاً وريحاناً ونعيماً ، وخيراً عميماً ، وابتهاجاً مقيماً ، واياماً حسنة فكأنها أعراس ، وقصيرة فكأنها انفاس.

توقيعاته

اهدى العميري قاضي قزوين الى الصاحب كتباً وكتب معها:

العميري عبد كافي الكفاة ومن اعتد في وجوه القضاة

خدم المجلس الرفيع بكتب مفعمات من حسنها مترعات

فوقع تحتها:

قد قبلنا من الجميع كتاباً ورددنا لوقتها الباقيات

لست استغنم الكثير فطبعي قول خذ ليس مذهبي قول هات

وكتب اليه بعض العلوية يخبر بانه رزق مولوداً ويسأله

ان يسميه ويكنيه فوقع في رقعته : اسعدك الله بالفارس الجديد ، والطالع السعيد ، فقد والله ملأ العين قرة ، والنفس مسرة مستقرة ، والاسم علي ليعلي الله ذكره ، والكنية ابو الحسن ليحسن الله امره ، فاني أرجو له فضل جده ، وسعادة جده ، وقد بعثت لتعويذه ديناراً من مائة مثقال ، قصدت به مقصد الفال ، رجاء ان يعيش مائة عام ، ويخلص خلاص الذهب الابريز من نوب الايام والسلام.

وكتب اليه ابو منصور الجرجاني :

قل للوزير المرتجي كافي الكفاة الملتجى
اني رزقت ولداً كالصبح اذ تبلجا
لازال في ظلك ظل المكرمات والحجى
فسمه وكنه مشرفاً متوجا

فوقع تحتها :

هنئته هنئته شمس الضحى بدر الدجى
فسمه محسناً وكنه ابا الرجا

وكتب اليه ابو حفص الوراق الاصبهاني : لولا ان الذكرى اطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل تنفع

المؤمنين ، وهزة الصمصام نعين المصلتين ، لما ذكرت ذاكرا ، ولا هززت ماضيا ، ولكن ذا الحاجة لضرورته يستعجل النجح ، ويكد الجواد السمح ، وحال عبد مولانا ادام الله تأييده في الحنطة مختلفة ، وجرذان داره عنها منصرفة ، فان رأى ان يخلط عبده بمن اخصب رحله ، ولم يشد رحله ، فعل ان شاء الله .

فوقع الصاحب تحتها : احسنت ابا حفص قولاً ، وسنحسن فعلاً ، فبشر جرذان دارك بالخصب ، وآمنها من الجدب ، فالحنطة تأتيك في الاسبوع ، ولست عن غيرها من النفقة بممنوع ، ان شاء الله تعالى .

وكتب بعض اصحاب الصاحب رقعة اليه في حاجة فوقع فيها ولما ردت اليه لم ير فيها توقيعاً وقد تواترت الاخبار بوقوع التوقيع فيها فعرضها على ابى العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو الف واحدة وكان في الرقعة فأن رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل فأثبت الصاحب أمام فعل الفا يعني افعل .

وكتب بعض العمال رقعة الى الصاحب في التماس شغل وفي

الرقعة ان رأي مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله فوقع تحتها: من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي.

ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى الصاحب في ظلامة لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها: في حديد بارد.

وكتب انسان الى الصاحب رقعة وقد اغار فيها على رسائله وسرق جملة من الفاظه فوقع فيها: «هذه بضاعتنا ردت الينا».

ووقع في رقعة استحسنها: «افسحر هذا أم انتم لا تبصرون».

ووقع في كتاب بعض مخالفيه: «ويل لهم مما كسبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون».

ووقع في رقعة ابي محمد الخازن وكان ذهب مغاضباً ثم كتب اليه يستأذنه في معاودة حضرته: «الم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت».

وكتب اليه ابو العباس الضبي يشفع بابي محمد الخازن فورد اليه هذا التوقيع: ذكر مولاي ادام الله عزه عود ابي محمد الخازن ايده الله للفناء الذي فيه درج، والوكر الذي منه خرج، وقد علم الله ان اشفاقي عليه في اغترابه، لم يكن باقل منه عند ايابه، فان احب ان يقيم مدبدة يقضي فيها وطر الغائب، ويضع

معها اوزار الآيب ، فليكن في ظل من مولانا ظليل ، ورأي منه جميل ، وبر من ديواننا جليل ، وان حفزه الشوق فرحباً بمن قربته التربية لدينا ، فافسدته العزة علينا ، وردته التجربة الينا ، وسبيله ان يرفد بما يزيل شغل قلبه بعياله ، ويعينه على كل ارتحاله ان شاء الله تعالى .

ووقع الصاحب في رقعة لابي الحسن الشقيقي البلخي : من نظر لدينه نظرنا لدنياه فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان اقمت على الجبر ، فليس لكسرك من جبر .

ووقع في رقعة بعض خطاب الاعمال : التصرف لا يلتمس بالتكفف ، ان احتجنا اليك صرّفناك ، والا صرفناك .

ورفع اليه بعض منهي الاخبار ان رجلاً ممن ينطوي له على غير الجميل يدخل داره في غمار الناس ثم يتلوّم على استراق السمع فوقع : دارنا هذه خان ، يدخلها من وفى ومن خان

امثلة من شعره

الادب والحكمة

وقائلة لم عرتك الهموم　　　وامرك ممتثل في الامم
فقلت دعيني على غصتي　　　فان الهموم بقدر الهمم

***

لقد صدقوا والراقصات الى منى　　　بان مودات العدا ليس تنفع
ولو انني داريت دهري حية　　　اذا استمكنت يوماً من اللسع تلسع

***

اذا ادناك سلطـان فزده　　　من التعظيم واحذره وراقب
فما السلطان الا البحر عظما　　　وقرب البحر محذور العواقب

***

كم نعمـة عندك موفورة　　　لله فاشكر يا ابن عبـاد
قم فالتمس زادك وهو التقى　　　لن تسلك الطرق بلا زاد

***

حق العيادة يوم بعد يومين　　　وجلسة مثل رد الطرف في العين
لا تبرمن مريضاً في مساءلة　　　يكفيك من ذاك تسأل بحرفين

***

الوصف

قال في الخمر :

رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها فتشا كل الامر
فكأنه خمر ولا قدح   وكأنها قدح ولا خمر

وقال :

وقهوة قد حضرت بختمها   فقلت للندمان عند شمها
لا تقبضن بالماء روح جسمها   فحسبها ما شربت من كرمها

وقال :

متغايرات قد جمعن وكلها   متشا كل اشباحها ارواح
واذا اردت مصرحاً تفسيرها   فالراح والمصباح والتفاح
لو يعلم الساقي وقد جمعن لي   من أي هذي تملأ الاقداح

وقال :

ولما بدا التفاح احمر مشرقاً   دعوت بكأسي وهي ملأى من الشفق
وقلت لساقيها ادرها فانها   خدود عذارى قد جعلن على طبق

وقال :

وكأس تقول العين عند جلائها   أهل لخدود الغانيات عصير ؟

تحاميتها الا تعلل واصف وقد يطرب الانسان وهو كبير

وقال :

وصفراء او حمراء فهي مخيلة لرقتها الا على المتوهم
تشككنا في الكرم ان انتماءه الى الخمر امهاتاالى الكرم تنتمي

ومنها :

تمتع ندمان بها واحبة وحظي منها ان اقول الا انعمي

لك الوصف دون القصف مني فخيمي
بغير يدي وارضي بما قاله فمي

وقال يصف الثلج :

اقبل الثلج فانبسط للسرور ولشرب الكبير بعد الصغير
اقبل الجو في غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منثور
فكأن السماء صاهرت الار ض فصار النثار من كافور

وقال :

هات المدامة يا غلام معجلا فالنفس في قيد الهوى مأسوره
او ماترى كانون ينثر ورده وكأنما الدنيا به كافوره

وقال :

هات المدامة يا غلام مصبرا نقلي عليها قبلة اوعضه

او ما ترى كانون بنثر ورده وكأنما الدنيا سبيكة فضه

وقال في الند :

ند لفخر الدولة استعماله قد زاد عرفاً من نسيم بديه
فكأنما عجنوه من اخلاقه وكأنه طيب الثناء عليه

وقال في حبة عنب :

وحبة من عنب من المنى متخذه
كأنها لؤلؤة في وسطها زمرذه

وقال :

وحبة من عنب قطفتها تحسدها العقود في الترائب
كأنها من بعد تمييزي لها لؤلؤة قد ثقبت من جانب

وقال في التين :

تين يزين رواؤه مخبوره متخير في وصفه يتحير
عسل اللصاب لديه مما يحتوى وجنى النخيل لديه مر ممقر
وكأنما هو في ذرى اغصانه قطع النضار ادارهن مدور
ويقول ذائقه لطيب مذاقه الله اكبر والخليفة جعفر

وقال في الشمع :

ورائق القد مستحب يجمع اوصاف كل صب

صفرة لون وسكب دمع | وذوب جسم وحر قلب

وقال في الخط واللفظ :

بالله قل لي اقرطاس تخط به | في حلة هو ام البسته حللا

بالله لفظك هذا سال من عسل | ام قد صببت على افواهنا العسلا

وقال في فلاة :

وتيهاء لم تطمث بخف وحافر | ولم يدر فيها النجم كيف يغور

معالمها ان لا معالم بينها | وآياتها ان المسير غرور

ولو قيل للغيث اسقها ما اهتدى لها | ولو ظل ملء الارض وهو جزور

تجشمتها والليل وحف جناحه | كأني سر والظلام ضمير

وقال في الوحل :

اني ركبت وكف الارض كاتبة | على ثيابي سطوراً ليس تنكتم

فالارض محبرة والحبر من لثق | والطرس ثوبي ويمنى الاشهب القلم

وقال في الصدغ :

يا شادنا في صدغه عقرب | ما يستجيب الدهر للراقي

يسلم خداه على لدغها | ولدغها في كبدي باقي

وقال :

وعهدي بالعقارب حين تشتو | تخفف لدغها وتقل ضرا

فما بال الشتاء اتى وهذي عقارب صدغه تزداد شرا

وقال في العذار :

رأيت عليا في لباس جماله فشاهدت منه الروض ثاني مزنه
ولما تبدى لي امتداد عذاره رأيت طراز الله في ثوب حسنه

وقال :

ان كنت تنكره فالشمس تعرفه او كنت تظلمه فالحسن ينصفه
ماجاءه الشعر كي يمحو محاسنه وانمـا جاءه عمداً يغلفـه

وقال :

دب العذار على ميدان وجنته حتى اذا كاد ان يسعى به وقفا
كأنه كاتب عز المداد له اراد يكتب لاما فابتدا الفا

وقال :

عذار كالطراز على الطراز وشمس في الحقيقة لا المجاز
تبدى عارضاه فعـارضاني وقـالا لا تمر بلا جواز
فقلت القلب عندكم مقيم وما حسن الثياب بلا طراز

وقال :

انظر اليـه كأنـه شمس وبدر حين اشرق
واللحظ محاسن خـده تعذر دموعي حين تذرفـه

فكأنها الواوات حين يخطها قلم محرف

وقال :

ابو نصر بن بكران مليح الخد والخط
فهذا النمل في العاج وذاك الدر في السمط

وقال :

ان لبس السواد اقوى دليل لامير يلي امور العباد
وامير الملاح يأتيه عزل حين تلقاه لابساً للسواد

وقال في الخط :

وخط كأن الله قال لحسنه تشبه بمن قد خطك اليوم فأتمر
وهيهات اين الخط من حسن وجهه
واين ظلام الليل من صفحة القمر

واتي الصاحب بغلام مثاقف فلعب بين يديه فاستحسن صورته واعجب بمثاقفته فقال لاصحابه قولوا في وصفه فلم يصنعوا شيئاً فقال :

ومثاقف في غاية الحذق فاق حسان الغرب والشرق
شبهته والسيف في كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق

وقال في الشيب :

تقول يوماً حبذا ما بالها   قد عرضتني عند شيبي للاذى
تقول سحقاً بعدان كانت و كنـ   ـت كحل عينيها فصرت كالقذى

***

الغزل

تسحب ما اردت على الصباح   فهم ليل وانت اخو الصباح
لقد اولاك ربك كل حسن   وقد ولاك مملكة الملاح
و بعد فليس يحضرني شراب   فانعم من رضابك لي براح
وليس لدي نقل فارتهني   بنقل من ثناياك الوضاح

وقال :

لا ترجوا اصلاح قلبي بلوم   حلف الجفن لا استقل بنوم
وهواه لئن تأخر عني   طول يومي اني سيحضر يومي

وقال :

علي كالغزال و كالغزاله   رأيت به هلالا في غلاله
كأن بياض غرته رشاد   كأن سواد طرته ضلاله
كأن الله ارسله نبيـا   وصير حسنه اقوى دلاله
اذا ما زدت وصلا زدت خبلا   كان حبال وصلك لى خباله

وقال :

هــذا علي علي في محاسنه كأنما وصفه ان يبلغ الاملا
وكم اقول قد ابصرت طلعته هذا الذي في طراز الله قد عملا

وقال :

قل لابي القاسم ان جئته هنيت ما اعطيت هنيته
كل جمـال فـائق رائق انت برغم البدر اوتيته

وقال :

قل لابي القاسم الحسيني يا نار قلبي ونور عيني
البـدر زين السماء حسناً وانت زين لـكل زين

وقال :

ومهفهف يغني عن القمر قمر الفؤاد بفاتن النظر
خالسته تفـاح وجنته من غير ابقاء ولا حذر
فاخافني قوم فقلت لهم «لا قطع في ثمر ولا كثر»

وقال :

الحب سكر خماره التلف يحسن فيه الذبول والدنف
عابوه اذ لج في تصلفـه والحسن ثوب طرازه الصلف

وقال :

وشادن يكثر من قول لا | اوقع قلبي فى ضروب البلا
قلت وقد تيمني طرفه | هذا هو السحر والا فلا

وقال :

وشادن ذي غنج | طاوي الحشا معتدل
انشدته شعراً بديـ | ـعاً حسناً من عملي
فقال فيمن ولمن | فقلت هذا فيك لي
فطار في وجنته | شعاع نار الخجل

وقال :

قد قلت لما مر يخطر ماشيا | والناس بين معوذ أو عاشق
لم يكف ما صنعت شقائق خده | حتى تلبس حلة بشقائق

وقال :

دعتني عيناك نحو الصبا | دعاء يكرر في كل ساعه
ولولا تقادم عهد الصبا | لقلت لعينيك سمعاً وطاعه

وقال :

شتمت من تيمني مغالطاً | لاصرف العاذل عن لجاجته
فقال لما وقع البزاز في الثـ | ـوب علمنا انه من حاجته

وقال :

يا قمرا عارضني على وجل   وصاله يشبه تأخير الاجل

وقال تبغي قبلة على عجل   قلت أجل ثم أجل ثم أجل

وقال :

وشادن في الحسن كالطاوس   اخلاقه كليلة العروس

قد نال بالحظ من النفوس   مالم تنله الروم من طرسوس

وقال :

بدا لنــا كالبدر في شروقه   يشكو غزالاً لج في عقوقه

يا عجبا والدهر في طروقه   من عاشق أحسن من معشوقه

وقال :

عزمت على الفصد ياسيدي   لفضل دم كظني موءلم

فلما تأخرت عن مجلسي   ارقت لغير افتصــاد دمي

وقال :

ومهفهف شكل المجون   اضنى فوءادي بالفنون

فنسيمه ملء الانو   ف وحسنه ملء العيون

وقال :

فمن كان يقطف ورد الجنا   ن فقطفي مذ كنت ورد الخدود

وهمي مذ كنت در الثغو   ر اذا أهتم غيري بدر العقود

وقال :

كنا واسباب الهوى متفقه　　نبتاً من الورد معا في ورقه
فالآن اذ اسبابه مفترقه　　قدصارت الارض علينا حلقه

وقال :

يا خاطرا يخطر في تيهه　　ذكرك موقوف على خاطري
ان لم تكن آثر من ناظري　　عندى فلا متعت بالناظر

وقال :

تأخرت عني والغرام غريم　　ومامل قرب الاكرمين كريم
واوهمتني سقماً وانت مصحح　　بلى لك عهد كيف شئت سقيم
ولوشئت لم تخلط وصالاً بهجرة　　كما شيب بالماء الزلال حميم
ففي الدهر كاف ان يفرق انه　　وصي ظلوم والكريم يتيم

وقال

ومهفهف حسن الشمائل اهيف　　تردى النفوس بفترتي عينيه
ما زال يبعدني ويؤثر هجرتي　　لجذبت قلبي من اسار يديه
قالوا تراجعه فقلت بديهة　　قولا اقيم مع الروي عليه
والله لا راجعته ولو انه　　كالشمس او كالبدر او كبويه

وقال :

ولم اخلع عذاري فيك الا — لما عاينت من حسن العذار
و كم ابصرت من حسن ولكن — عليك من الورى وقع اختياري

وقال ويروي لغيره :

رشأ غدا وجدي عليه كردفه — وغدا اصطباري في هواه كخصره
و كأن يوم وصاله من وجهه — و كأن ليلة هجره من شعره
ان ذقت خمراً خلتها من ريقه — أو رمت مسكاً نلته من نشره
واذا تكبر واستطال بحسنه — فعذار عارضه يقوم بعذره

وقال في صبّاح الحاجب :

خداه ورد وصدغه سبج — ومقلتاه الغناة والراح
ان هز اطرافه على نغم — شقت جيوب وطاح ارواح
وجملة القول في محاسنه — ان امير الصباح صبّاح

وقال :

وشادن قلت له ما اسمكا — فقال لي بالغنج عباث
فصرت من لثغته الثغا — فقلت أين الكاث والطاث

وقال :

لقد قلت لما اتوا بالطبيب — وصادفني في احر اللهيب
وداوى فلم انتفع بالدوا — ء دعوني فان طبيبي حبيبي

ولست أريد طبيب الجسو ... م ولكن اريد طبيب القلوب
وليس يزيل سقامي سوى ... حضور الحبيب و بعد الرقيب

***

ملح من اخوانياته

كتب الى ابي الفضل بن شعيب :

يا ابا الفضل لم تأخرت عنا ... فاسأنا بحسن عهدك ظنا
كم تمنت نفسي صديقاً صدوقاً ... فاذا انت ذلك المتمنى
فبغصن الشباب لما تثنى ... وبعهد الصبا وان بان منا
كن جوابي اذا قرأت كتابي ... لا تقل للرسول كان وكنا

وكتب الى ابي بكر الخوارزمي :

اسعدك الله بيوم النصح ... وعشت ما شئت بيوم سمح
يا رأس مالي في الورى وربحي ... وظفري ونصرتي ونجحي
شربا ولا تصغ لاهل النصح ... فالحزم ان تسكر قبل نصحي
سكر النصارى في غداة الفصح

وكتب الى ابي القاسم القاشاني :

يا ابا القاسم قل لي ... قل لماذا لا تزور
كنت قد قدمت وعداً ... فاذا وعدك زور

وبذرت الود بالــقو   ل فلم تزك البزور
ونحرت الود بالمجد   ر كما يهدى الجزور
ان ام الصدق في الود   لمقــلاة نزور

وكتب اليه أيضاً :

مولاــي لم لم تدع عبـ   ـدك عندك احضار المدام
اعرفتــه من بينهم   متبسطــاً وقت الطعــام
ام قيل عربد ذات يو   م حين صار الى الطعام
ام لم يساعد حــين ملـ   ـت الى الغلامة والغلام
ان كنت تبخل بالطعا   م فكيف تبخل بالكلام
لسنــا نحـــاول دعوة   فاسمح علينــا بالسلام

وقال :

لو فتشوا قلبي رأوا وسطه   سطرين قد خطا بلا كاتب
حب عليّ بن ابي طــالب   وحب مولاــي ابي طالب

وقال :

يا ابن يعقوب يا نقيب البدور   كن شفيعي الى فتى مسرور
قل له ان للجمال زكاة   فتصدق بهــا على المهجور

وكتب الى ابي العلاء الاسدي يكني عن الجرب :

ابا العلا يا هلال المزل والجد　　كيف النجوم التي يطلعن فينا الجلد

وباطن الجسم غير مثل ظاهره　　وانت تعلم مما قلته قصدي

وقال في انفاذ الحلواء :

حلاوة حبك يا سيدي　　تسوغ بعثي اليك الحلاوه

وقال :

قولوا لاخواننا جميعاً　　من كلهم سيد مرزا

من لم يعدنا اذا مرضنا　　ان مات لم نشهد المعزى

وقال لمحمود التاجر :

طويت محموداً على جفوته　　مخلصاً نفسي من خلته

فدوته بقلق من علتي　　مثل انزعاجي كان من علته

لم يأت بابي لا ولا مر بي　　كأن سقمي كان من شهوته

من لم يطالعني على علتي　　ان مات لم امض الى تربته

وقال للقاضي ابي بشر الجرجاني :

يصد الفضل عنا أي صد　　وقال تأخري عن ضعف معده

فقلت له جعلت العين واواً　　فان الضعف اجمع في الموده

وقال :

بعدت فطعم العيش عندي علقم　　ووجه حياتي مذ تغيبت ارقم

فمالك قد ادغمت قربك في النوى   وودك في غير النداء مرخم

وكتب ابو هاشم العلوي الطبري الى الصاحب :

دعوت اله الناس شهراً محرماً   ليدفع سقم الصاحب المتفضل
الى بدني او مهجتي فاستجاب لي   فها انا مولانا من السقم ممتلي
فشكراً لربي حين حول سقمه   الي وعافاه ببرء معجل
وأسأل ربي ان يديم علاءه   فليس سواه مفزع لبني علي

فاجابه الصاحب :

ابا هاشم لم ارض هاتيك دعوة   وان صدرت عن مخلص متطول
فلا عيش لي حتى تدوم مسلما   وصرف الليالي عن ذراك بمعزل
فان نزلت يوماً بجسمك علة   وحاشاك فيها يا علاء بني علي
فناد بها في الحال غير مؤخر   الى جسم اسمعيل دوني تحوّلي

وقال مجيباً على قصيدة :

عناني من الهم ما قد عناني   فاعطيت صرف الليالي عناني
الفت الدموع وعفت الهجوع   فعيناي عينان نضاختان

ومنها :

الممتني بالامس أبياتــه   تعلل روحي بروح الجنان
كبرد الشباب و برد الشراب   وظل الامان ونيل الاماني

وعهد الصبي ونسيم الصبا … وصفو الدنان ورجع القيان
فلو ان الفاظه جسمت … لكانت عقود نحور الغواني
فياليت عمري في عمره … يزاد ولو انه حقبتان
اجبت عن الشعر مسترسلا … بطبع شجاع وقلب جبان
ولولا سكوني الى فضله … قبضت بناني بقبضي لساني

***

المديح

قال من قصيدة في عضد الدولة :

سعود بحار المشتري في طريقها … ولا تتأتى في حساب المنجم
وكم عالم احييت من بعد عالم … على حين صاروا كالهشيم المحطم
فوالله لولا الله قال لك الورى … مقال النصارى في المسيح ابن مريم
محامد لو فضت ففاضت على الورى … لما ابصرت عيناك وجه مذمم
وكلا ولكن لو حظوا بزكاتها … لما سمعت اذناك ذكر ملوم
ولو قلت ان الله لم يخلق الورى … لغيرك لم احرج ولم اتأثم

وقال من أخرى :

همام رأى الدنيا سواما فخاطها … ليالي في غبر الزمان وفور ؟
ولم يخطب الدنيا احتفالا بقدرها … فوقعها من راحتيه يسير

ولكن له طبع الى الخير سابق ورأي بابناء الرجال بصير
وان لم يلاحظهم بعين حمية فتلك امور لا تزال تمور

ومن اخرى :

يا ايها الملك الذي كل الورى قسمان بين رجائه وحذاره
فمناصح قد فاز سهم طلابه ومداهن قد جال قدح بواره
هذي بخاري تشتكي الم الصدى وتقول قولا نبت في اخباره
ماذا عليه لو يهم بعرصتي فاكون بعض بلاده ودياره

وكتب الى موءيد الدولة ابي منصور :

سعادة ما نالها قط احـد يحوزها المولى الهمام المعتمد
موءيد الدولة وابن ركنها وابن اخي معزها اخو العضد

وقال في فخر الدولة وقد افتصد :

يا ايها الشمس الا ان طلعتها فوق السماء وهذا حين يفتصد
لما افتصدت قضينا للعلا عجبا وما حسبت ذراع الشمس يفتصد

وقال فيه لما بنى قصره بجرجان :

يابانيـا للقصر بل للعلا همك والفرقد سيان
لم تبن هذا القصر بل صغته تاجا على مفرق جرجان
وقصرك المبني من قبله ملكك والله هو البـاني

فاقبل نثار العبد بل نظمه	فانه والدر مثلان
واسمع مقالا لم يقل مثله	مذ كانت الدنيا لانسان
لو كان للخلق آلهان	لكان فخر الدولة الثاني

وقال :

هذي المكارم والعلياء تفتخر	بيوم مأثرة ساعاته غرر
يوم تبسم عنه الدهر واجتمعت	له السعود واغضت دونه الغير
حتى كأنا نرى في كل ملتفت	روضا تفتح في اثنائه الزهر
لما تجلى عن الآمال مشرقة	قال العلى بك استعلي واقتدر
وافى على غير ميعاد يبشرنا	بان متبعه امثاله الاخر
اهنا المسرات ماجاءت مفاجأة	وما تناجت بها الالفاظ والفكر
لو ان بشرى تلقتها بموردها	لأقبلت نحوها الارواح تبتدر
وما تعنف من يسخو بمهجته	فان يومك هذا وحده عمر
فما غدوت وما للعين منقلب	الا الى منظر يبهى ويحتبر
ثنت مهابتك الابصار حاسرة	حتى تبين في الحاظها خزر
اذا تأملتهم غضوا وان نظروا	خلالى ذاك فادنى لفتة نظروا
في ملبس مارأته عين معترض	فشك في أنه اخلاقك الزهر
البسته منك نوراً يستضاء به	كما أضاء ضواحي مزنه القمر

وقد تقلدت عضباً أنت مضربه ... وعنك يأخذ ما يأتي وما يذر
مازال يزداد من اشراق غرته ... زهراً ويشرق فيه التيه والاشر
والشمس تحسد طرفاً انت راكبه ... حتى تكاد من الأفلاك تنحدر
حتى لقد خلت ان الشمس ازعجها ... شوق فظلت على عطفيه تنتثر

وقال في بني المنجم :

لبني المنجم فطنة لهبيه ... ومحاسن عربية عجميه
مازلت أمدحهم وانشر فضلهم ... حتى اتهمت بشدة العصبيه

وقال في ابي هاشم العلوي الطبري :

ان ابا هاشم يد الشرف ... مادحه آمن من السرف
حل من المجد في اواسطه ... وخلف العالمين في طرف[1]

* * *

الهجاء

قال في ابن متويه :

يا فتى متويه رفقاً ... لست من ينكر اصله
انما ينكر منه ... من جنون فيه ثقله

---

(١) انظر ص ٧ و٨ و٩ و١٠ من هذا الكتاب فهناك مدائح قالها الصاحب في ابن العميد كما ان تفاريق من شعره ونثره وردت في اثناء الكتاب لاقتضاء المحل فلم ار حاجة لاعادة نقلها في الفصلين المعقودين لنثره وشعره ·

انت نذل من كرام　　انت في الطاوس رجله

وقال :

ابوك ابو علي ذوعلاء　　اذا عد الكرام وانت نجله

وان اباك اذ تعزى اليه　　اكالطاوس يقبح منه رجله

وقال :

احمد هذا سبط متويه　　في موته بعد غد تهنيه

والشأن في اني على بغضه　　احتاج أن أقعد للتعزيه

وقال :

سبط متوي ان دارك دار　　قد عرفت الادبار اذ تبنيها

لا تكثر تزويقها وترفق　　عن قليل يكون قبرك فيها

وقال فيه :

كلما زدت عتاباً　　زدت في هجوك بيتا

أو ترى طبعي غيضاً　　او ارى جسمك ميتا

وقال في الغويري :

ان الغويري له نكهة　　نتنتها اربت على الكنف

ياليته كان بلا نكهة　　أوليتني كنت بلا انف

وقال فيه أيضاً :

فم الغويري اذا فتشته أنتن فم
كم قلت اذ كلمني وآاسفي على الخشم

وقال :

ان قاضينا لاعمى ام على عمد تعامى
سرق العبد كأنا! عبد من مال اليتامى

وقال :

ياقاضيا بات اعمى عن الهلال السعيد
افطرت في رمضان وصمت في يوم عيد

وقال :

رأيت لبعض الناس فضلا اذا اتمى يقصر عنه فضل عيسى بن مريم
عزوه الى تسع وتسعين والدا؟ وليس لعيسى والد حين ينتمي

وقال :

مطفل اطفل من اشعب مازال محروماً ومذموما
لو انه جاء الى مالك لقال اطعمني زقوما

وقال :

انظر الى وجه ابي زيد او حش من حبس ومن قيد
وحوشه ترتع في ثوبه وظفره يركب للصيد

وقال في رجل كثير الشرب بطيء السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما   توالت عليه من نداماه قرقف
فقلت سبيل الخمر ان تنقص الحجى   فان لم تجد عقلا فماذا تحيف ؟

وقال :

نبئت انك منشد ما قلته   في سب عرضك لا تخاف وعيدي
والكلب لا يخزى اذا اخسأته   والقار لا يخشى من التسويد

وقال :

تزلزلت الارض زلزالها   وقالوا باجمعهم مالها ؟
مشى ذا الثقيل على ظهرها   فاخرجت الارض اثقالها

وقال :

وناصح اسرف في النكير   يقول لي سدت بلا نظير
فكيف صغت الهجو في حقير   مقداره اقل من نقير
فقلت لا تنكر وكن عذيري   كم صارم جرب في خنزير

وقال :

ايا اقبح في المنظر   من دب على غول
ويا اسمج من طلعة   شيطان على فيل

وقال فيمن زوج أمه :

زوجت امك يا فتى ... وكسوتني ثوب القلق

والحر لا يهدي اللحو ... م الى الرجال على طبق

***

متفرقات

قال في مرض علوي :

يا سيداً افديه عند شكاته ... بالنفس والولد الاعز وبالاب

لم لا ابيت على الفراش مسهداً ... وقد اشتكى عضو من اعضاء النبي

وقال في الشيب :

تصد اميمـة لمـا رأت ... مشيباً على عارضي قد فرش

فقلت لها الشيب نقش الشبا ... ب فقالت الا ليته ما نقش

وقال :

ولما تناءت بالاحبة دارهم ... وصرنا جميعاً من عيان الى وهم

تمكن مني الشوق غير مسامح ... كمعتز لي قد تمكن من خصم

وقال :

كنت دهراً اقول بالاستطاعه ... وارى الجبر ضلة وشناعه

ففقدت استطاعتي في هوى ظبـي فسمعاً للمجبرين وطاعه

وقال في شهر رمضان :

قد تعدوا على الصيام وقالوا   حرم الصب فيه حسن العوائد
كذبوا في الصيام للمرء مهما   كان مستيقظاً اتم الفوائد
موقف بالنهار غير مريب   واجتماع بالليل عند المساجد

وقال :

راسلت من اهواه اطلب زورة   فاجابني اولست في رمضان؟
فاجبته والقلب يخفق صبوة   اتصوم عن بر وعن احسان
صم ان اردت تحرجاً وتعففاً   عن ان تكد الصب بالهجران
اولا فزرني والظلام مجلل   واحسبه يوماً مر في شعبان

وقال يرثي ابا الحسن السلمي :

اذا ما نعى الناعون اهل مودتي   بكيت عليهم بل بكيت على نفسي
نعوا مهجة السلمي وهي سلامة   غلبت عليها فالسلام على الانس

وقال يرثي ابا منصور كثير بن احمد :

يقولون لي اودى كثير بن احمد   وذلك رزء في الانام جليل
فقلت دعوني والعلا نبكه معاً   فمثل كثير في الرجال قليل

وقال :

يا اهل سارية السلام عليكم   قد قل في ارضيكم الخطباء
حتى غدا الفأفاء يخطب فيكم   ومن العجائب خاطب فأفاء

وقال في اخوين صبيح وقبيح :

يحيى حكى المحيا ولكن له   اخ حكى وجه ابي يحيى [1]

وجمع اسماء قداح الميسر في قوله :

ان القداح امرها عجيب   الفذ والتوأم والرقيب.
والحلس ثم النافس المصيب   والمصفح المشتهر النجيب.
ثم المعلى حظه الترغيب   هالك فقد جاء بها الترتيب.

وقال :

دارك لي جنة ولكن   بوابها مالك الجحيم

وقال :

ومغن يتغنى   بطعام وشراب
فاذا رمنا سكوتا   فبمال وثياب

قال القاضي ابو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني انصرفت يوماً من دار الصاحب وذلك قبل العيد فجاءني رسوله بعطر الفطر ورقعة مكتوب فيها :

يا ايها القاضي الذي نفسي له   مع قرب عهد لقائه مشتاقه
اهديت عطراً مثل طيب ثنائه   فكأنما اهدي له اخلاقه

---

(١) يكنى عن الموت بابي يحيى.

وكتب الصاحب الى ابي هاشم العلوي وقد أهدى اليه يوم اضحى عطراً في طبق فضة :

اقبل من الطيب الذي اهديته ما يسرق العطار من اخلاقك
والظرف يوجب اخذه مع ظرفه فأضف به طبقاً الى اطباقك

وورد ابو حفص الشهرزوري على الصاحب وكان في بصره سوء وقدمه اليه بعض كتابه فقال له الصاحب مداعباً :

وكاتب جاءنا باعمى لم يحو علما ولا نفاذا
فقلت للحاضرين كفوا فقلب هذا كعين هذا

وقال يتشوق الى اصبهان :

يا اصبهان سقيت الغيث عن كثب فانت مجمع اوطاري واوطاني
والله والله ما انسيت برك بي ولو تمكنت من اقصى خراسان
يا حبذا ارضها والشمل مجتمع والدهر ماخانني في حزب اخواني
ذكرت ديرث اذ طاب الغناء بها يا بعد ديرت من ابواب جرجان

الفهرس

الصاحب ابن عباد

جدول الخطأ والصواب

خطأ	صواب	سطر	صفحة
على ابي الفتح ثم	على ابي الفتح في السابع من شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٦ ثم	١٢	٢٣
عضد لدولة	عضد الدولة	٦	٢٥
ـ ني	سرنى	١٢	٢٧
ان	ادن	١	٣٢
بلعك	بلغك	١٤	٣٤
وقال	قال	٩	٤١
ذريه	دزبه	١٢	٤٨
ابن بي خالد	ابن ابي خالد	٢	٧٧
ومساكي	وامساكي	١٥	٨٠
بجَزوى	بجزوى	١٧	٨٧
متعح	فتح	١٣	١٢٩
لا الاقرار	الا الاقرار	٨	١٥٧
قي	في	٦	١٦٤

خطأ	صواب	سطر	صفحة
الدهر	الدهر	١١	١٦٨
قول	اقول	١٢	١٧٠
الطربقي	الطريق	١٦	١٦٥
بحملها	يحملها	١	١٩٩
تشوقت	تشوفت	١٦	٢٠٠
قلبه	وقلبه	٣	٢٠٢
فم	فما	١٤	٢٠٢
وامله املاك	امله واملاك	١٠	٢٠٥
المطال	المطالب	٧	٢٠٦
تعريض للشرود	تعريض النعم للشرود	١٤	٢ ٨
الابحاز	الايجاز	٤	٢١٠
على قمر	من قمر	١٠	٢١٤
ديناداً	ديناراً	٥	٢٢١
الرتجى	المرتجى	٩	٢٢١
ودت	وردت	١٢	٢٢٢
العزة	الغرة	٣	٢٢٤

خطأ	صواب	سطر	صفحة
مصبرا	مصيرا	١٧	٢٢٧
جناخه	جناحه	٩	٢٢٩
متل	مثل	١٠	٢٤٠